كتاب الزهراء

صافي ناز كاظم

عن السجن والحرية

الزهراء للإعلام العربي

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

الزهراء للإعلام العربى
قسم النشر

ص .ب : ١٠٢ مدينة نصر – القاهرة – تلغرافياً : زهراتيف – تليفون ٦٠١٩٨٨ – ٦١١١٠٦ – تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن
P . O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 611106 - Telex : 94021 Raef U N

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٠٦ هـ – مايو ١٩٨٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجمع التصويرى والتجهيز

بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف والإخراج الفنى : عصمت داوستاشى

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

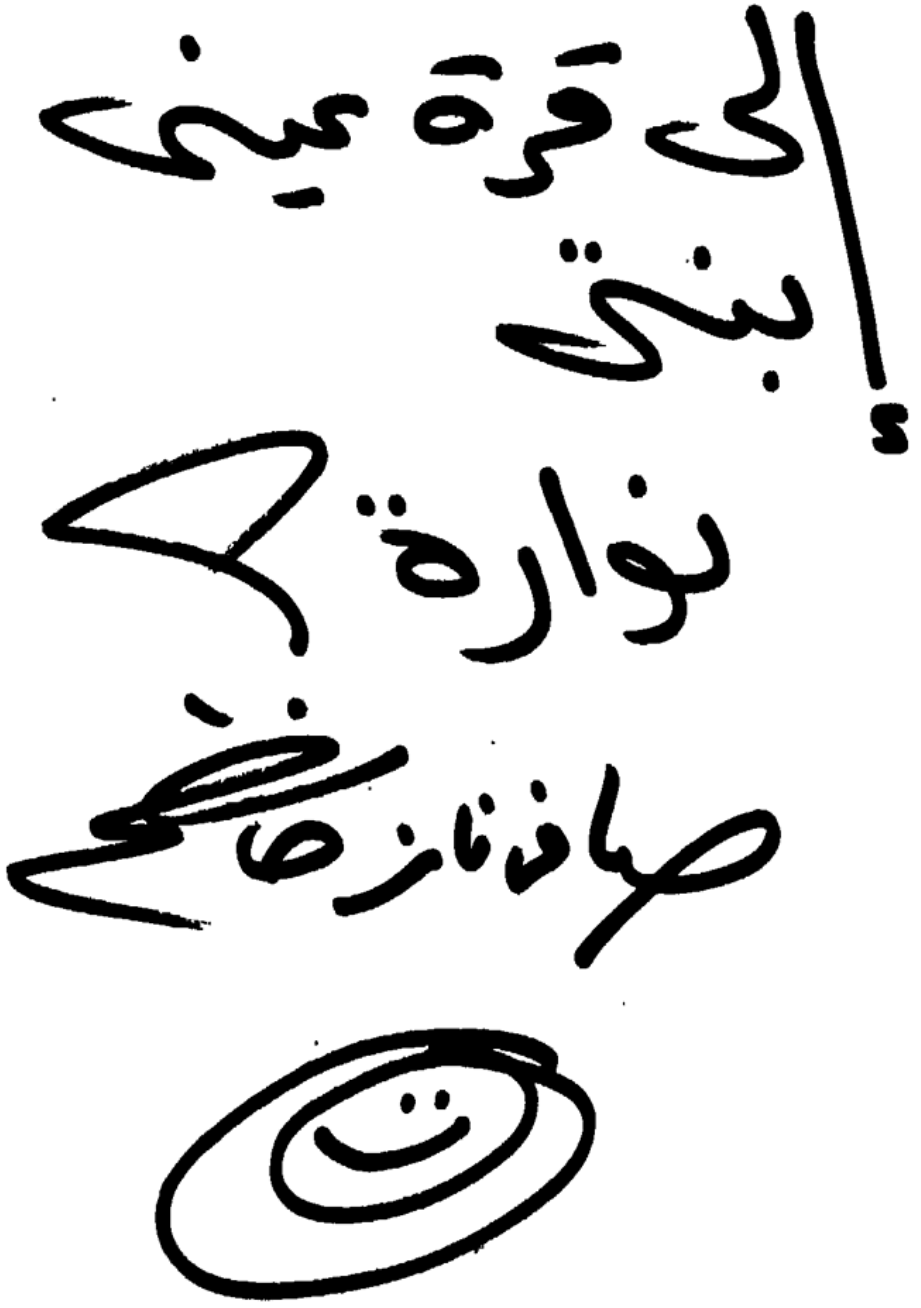

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

كتـــاب الزهـــراء الثانـــى

يأتى « كتاب الزهراء » الثانى مع إطلالة شهر كريم ، حديقة العابد الفيحاء ، شهر رمضان المبارك .

وعنوان الكتاب « عن السجن والحرية » ومؤلفته هى صافى ناز كاظم ونكاد هنا أن نكتفى بلا تعليق ، فالقارىء قد يتوقع من دون إيحاء منا ما يمكن أن تنسجه صافى ناز كاظم من مواويل للشوق والاكتئاب حين يكون موضوعها « حرية » و « سجن » .

فأشواق صافى ناز أشواق متحوطة ، أبداً ، حول الإسلام : تبدأ عنه وتنتهى عنده .

وهى ، كما تقول عن نفسها ، متفقهة فى الاكتئاب ، لكن اكتئابها ، كما تقول أيضا ، مختلف عن اكتئاب الدمامة العلمانية : انه الاكتئاب المرادف للجملة القرآنية على لسان موسى عليه السلام : « يضيق صدرى ولا ينطلق

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

لسانى » : ذلك الاكتئاب الذى ينتاب المسلم حين يتلفت فلا يجد الإسلام حاكما كما ينبغى ولا مسيطراً كما يرجو .

ويبدو « السجن » فى مدلوله الواسع عند صافى ناز هو « غياب الإسلام » حيث لا تعرف معنى « للحرية » فى حياة تخلو من نوره فى سيادة مطلقة .

هذا « عن السجن والحرية » وإلى لقاء قادم مع الجديد من « كتاب الزهراء » بإذن الله تعالى وتوفيقه .

الناشـــــــر

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

« تحية للصبية التى قامت بالعملية الاستشهادية
فى لبنان ضد قوات الاحتلال الصهيونى ١٩٨٥/٤/٩ .»

سناء محيى دلّة .
سناء مهيدلّة .
أيهما يكونُ لقبُك ؟
لانعرف ولا يُهِم .
تجاوزت بسنائك الألقابَ جميعَها ،
والأسماءِ كلَّها وصرت علماً يعانق ،
فى زمن المسلمينَ الصعب ،
خولة بنت الأزور وأم حرام .

لحظة أن انطلقت سناءً بسيارة الحب المتفجرة نحو الاستشهاد ، كان الحزن فى قلبىَ جرحاً ينزُّ مادة الخزى الصفراء وعبثاً تجففها أيامُ الجَفاف .

كم كان عمرُك يوم أن زوروا باسمنا التاريخ ومنعونا البكاء ؟

كنت فى ظهر أبيك غيباً إسلامياً :
يختزن البشارة ،
ويكتنز الألق ،
ويهدينا المسرّة .

تركت كلَّ شىء ،
لتعطى كلَّ شىء :
لتنبثقى من بين سيقان يأسِنا ،
نوارةَ أملٍ دائمِ الاخضرار :
تنسجين مجدَ الاستشهاد ،
فآه من وطأة الفرح المخضل بالمحنة !
وآه من التماع البهجة المطلةِ على أسراب المعصوبةِ أعيُنهُم ، والمقيدة سواعِدُهُم يساقون من وطن محتل إلى وطن محتل والغضبُ فى النفوس المهزومةِ داجن أجرد !

آهٍ ياابنة الأمهات اللاتى يلدن للسكين ! آهٍ ياسناءً علّمنا كيف يُضاء الكبرياءُ من زيت « الشهادةِ » المشتعل :
استجاشةً وتوقاً !

آه ياعروس الإسلام : ياأخت « سـليمان » و « خالـد » ،
سنكتب عنك الشعْرَ ، فلا تعذرينا ، فلقد خططت المنهجَ وعَرَفنا منك أن الشعر لايُكتب فلا تعذرينا !
ولاتعذرى الذين تقيحّوا فى مآزرهم ، وتجصصوا خلف نوافِذهم يندبون صباك .

آه ياتوشيحة النواح الممتدةَ من « غرناطة » حتى « طشقند » و « سمرقند » :

تجددى فوق « كابول » و « عدن » وتعالى صوب « القدس » واجلدى النُّوّم الهاجعين وسط القتلة !

دباباتُهم تحاصر القرى ،
ونفيرهم يُرغم الرجال على الخروج عزّلا ،
وليالى الذلِّ بالأندلس تنهمر علينا رُغاماً
أسودَ يَمْسَخُ الوجوه ، والسيف لايزال مُصلتا :

« الردةُ عن الإسلام أو الموت » !

– وآه من إجابة هى صِنوُ الإبادة ! –
حتى أتيت سناءً ،
مندفعة بالرد العزيز ،
وبالقيادة :

بل عليكم سوف ينهمر الرُّغام ،
عليكم سوف ينهمر الرُّغام !

٢٢ رجب ١٤٠٥
١٢ إبريل ١٩٨٥

آمين

العصر الأوروأمريصهيونى
وعصر الإسلام

عبر تاريخ طويل من استعمار أراضى الغير وسلب ثرواتهم شيّدت أوروبا رخاءها وترفها وتقدمها المادى . وعبر تفوقها المادى وسيطرتها العسكرية ، فرضت أوروبا عقلها وثقافتها ووجهة نظرها على سائر قارات الكرة الأرضية . وتمثل فى أوروبا المصطلح القرآنى « فتنة الدنيا » بكل تصوراته وأبعاده ، وأصبحت أوروبا بهذه « الفتنة » شيطاناً طاغيا لايكف عن محاولة إعادة خلق العالم على صورته .

وعلى مدى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين وأوروبا تحرز إنتصاراتها وتأخذ المجتمع العالمى فى قبضتها بحيث أصبحت كلمة « العالمية » مرادفةً لكلمة « أوروبى » وتدخلت أمريكا لتصبح طرفا فى الصورة فاتسعت الكلمة لتصير « **غربى** » وتولد مصطلح « **العصرية** » ومدلول « **الحداثة** » من مجمل « **العالمى** »، « **الأوروبى** »، « **الغربى** » وصار كل نموذج تطرحه أوروبا يأخذ بالضرورة لقب « **العالمى** » ويكون معيار « **العصرية** » و « **الحداثة** » . وبنفس المنطق أصبح كل شىء ترفضه أوروبا « ملغيا » إذ سحبت منه رخصة الاعتراف « **الدولى** » ، « **العالمى** » ، « **الأوروبى** » وتم إهماله خارج « **العصر** » وإطار « **الحداثة** » ومن ثم « النهضة » !

وعلى ذلك فحين ترددت فى أرجاء أوروبا صدى الصرخة الفاحشة : « إن الله قد مات » ! وتجمعت أبواق الشعر والقصة والمسرح والرواية والفنون قاطبة لتعبر عن الصيحة وتروّج لفلسفتها : خرج « **الإلحاد الأوروبى** » فى أبهى زينته ليفرش ذيله الطاووسى « **عالميا** » ويصبغ « **العصر** » بألوانه و « **الإنسان** » فى خُسر !

●

خسر « **الإنسان** » الأوروبى « **الإيمان** » وأوداجه منتفخة بالمال والعلم المادى فتولدت أسلحة الدمار وانكفأت أوروبا فى حربين طاحنتين تحملان أختام « **العالمية** » و « **العصرية** » و « **الحداثة** » .

●

ومع نفخ الغرور فى أوداج « الإنسان » ، الذى أُلقى فى روعه أنه هو « الإله » الفعلى الخالق لكل مبدعات الكون ، كان الإصرار لتثبيت منشئه المنحط وتطوره عن أجداد له من القرود ! واستثيرت فى هذا «**الإنسان** » أقبح نوازعه الحيوانية الشريرة الكامنة – (التى تصورها أفلام إنجمار برجمان خير تصوير) – فتألقت قدراته فى ممارسة القتل البارد والإبادة الذكية المنهجية المتقنة : من هيروشيما ونجازاكى ومذابح الإنجليز للمسلمين فى الهند وأفران هتلر ومذابح الصهاينة فى ديرياسين حتى صابرا وشاتيلا وهدم البيوت على ساكنيها فى جنوب لبنان وتسميم الفتيات فى جنين .. الخ . وتمكن العنف من الساحة الدولية بصفته الأطروحة الأوروبية الأمريكية لصيغة التعامل الدولى « **العصرى** » ولغة التفاهم « **الحديثة** » ، إلا أن هذا العنف لم يُسمّ باسمه بل حُسّن لفظه إلى : قوة إنتشار سريع وحسم بديع ودفاع عن الأمن العالمى ضد « **إرهاب** » الشعوب المقهورة !

ولما كانت كل هذه المسمّيات كذبات واضحة فقد أضيفت إليها : هيئات لحقوق الإنسان ومظاهرات احتجاج – يقودها رؤساء الدول الكبرى ! – ولافتات إدانة ومحاكمات ديمقراطية وصلوات فى الفاتيكان من أجل أن يحب الإنسان أخاه الإنسان ولو كان ريجان وبيجن وميتران وشامير وبيرنز !

●

فى مقابل أوروبا وقف العالم « الملغى » بحضاراته ومعتقداته وقد أضحت إنجازاته تتمحور حول استكماله أدوات محاكاة أوروبا – وأهمها « **التغريب** » و « **العلمانية** » – **ولاتنسوا درس عين فتحه عا رجاءً !– وذلك لكى يتقدم هذا العالم « الملغى » بأوراقه لاعتماده داخل « العصر »** : وتقوم فى العالم « الملغى » الثورات لتنتهى بأنظمة علمانية دكتاتورية تجبر شعوبها على الاستخفاف بالدين وتنحيته من دنياها ، إن لم تجبرها فى بعض التجارب على الإلحاد ، ذلك وهى تجلدها لتنتظم تلك الشعوب وتتحول إلى « قردة » ملتزمة بمحاكاة كاريكاتيرية للوثن المعبود : « أوروبا » !

●

تجبر الشعوب على المحاكاة « القردية » لأوروبا ، محاكاة لاتبلغ بها موقعاً فى « **العصر** » أو موقفاً أو هوية إذ هى : معدومة الحرية ، مسلوبة الإرادة والاختيار ، مجمدة العقل ، منزوعة منها آلية الدفاع الفطرية التى تلهم الجفن برد فعل سريع لإغلاق العين قبل الخزق !

ونظرت أوروبا إلى هذا المسخ الأحول الأبله الرخو فى مقابلها وارتاحت وقالت : « هذا حسن ! » فكل شىء صار معطلاً وقبيحاً كما ينبغى . وقالت أوروبا لخلقها الممسوخ :

– « سميتك العالم الثالث فادخل عصرى بصفتك الدول المتخلفة أو النامية إن شئت التلطف ! » وكان حكام الأنظمة الدكتاتورية يبتسمون جذلاً أمام رضاء سيدتهم « أوروبا » وقبولها لهم فى مدرسة « العصر » وهم يؤكدون لها كرمهم بأن فى وسعهم قبحاً أكثر !

●

فى هذا التكوين المتكامل بين « أوروبا » ومقابلها الأدنى المسمى بـ « العالم الثالث » ، المتهالك عند أعتاب عصرها ، ظل « الإسلام » خارج هذه الدائرة برمتها : تكوينا خاصاً بذاته و « عصراً » متفرداً فى « العصر » : له منهاجه ، منطقه ، منطلقاته ، رؤاه ، قياساته الجمالية ، علمه ، لغته ، أهدافه ، معاركه ، مطالبه ، احتياجاته و : « إنسانه » : الإنسان الذى لم يكن « قرداً » أبدا ولن يصبح « **إلها** » قطعاً .

●

ونظر العصر – الذى يمكن أن نسميه بواقعه : « الأوروأمريصهيونى » – إلى « **الإسلام** » ورآه سلفيّة من الزمن الميّت – فى زعمه – وعودة إلى الوراء إلى العصور المظلمة والقرن السابع الميلادى ... إلى آخر الموال المحفوظ – (فى الوقت الذى تقبل فيه العودة الصهيونية إلى الوراء خمسة آلاف سنة من الخزعبلات والخرافات والسحر والكهانة !) –

ونظر « **الإسلام** » العزيزإلى العصر « الأوروأمريصهيونى » ورآه جاهلية من الزمن الردىء الغابر ، الذى تحدث عنه القرآن والذى سوف تتحقق فيه بلا شك : « سنّة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » – غافر / ٨٥ – وليس ببعيد مثل الإمبراطورية الرومانية ولابعيد مثل الإمبراطورية

الفارسية ، حيث كان هناك نفس الكفر « المعاصر » والاستكبار والتطاول فى البنيان والترف والانحلال والدفاع عن الشهوات والغرور بحروب الدمار وحكم الطغاة وأذى الجبابرة ... ثم : كان زوالهما هباء منثوراً !

●

العصر « الأوروأمريصهيونى » و العصر « الإسلامى » عصران نقيضان : خصمان : فكل صحيح فى العصر « الأوروأمريصهيونى » خطأ فى العصر « الإسلامى » وكل فضيلة فى العصر « الإسلامى » مكروهة محاربة فى العصر « الأوروأمريصهيونى » لايمكن الجمع بين العصرين ، ولايمكن الحياد بينهما ، ولايمكن الامتداد والتواصل فيما بينهما ، فهما دورتان منفصلتان لكل واحدة قانونها ورموزها : فحين تكون رموز « **الإسلام** » : إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد - صلوات ربى وسلامه عليهم أجمعين - تكون رموز « الأوروأمريصهيونى » : نمروذ ، فرعون ، قيصر ، كسرى ، قريش !

●

وحين يتحول « المسخ » إلى إنسان ويبدأ فى إحياء آدميته ويرفض المواصلة مع العصر « الأوروأمريصهيونى » فعليه أن ينتقل جذريا منه إلى عصر « **الإسلام** » مع تقطيع كل أواصره وروابطه مع العصر « الأوروأمريصهيونى » المحكوم عليه بالهلاك . ويكون هذا التحول هو : التحول الحر الحاسم الذى يفك السحر عن البجع والقردة والخنازير ويعيدهم إلى بشريتهم وإنسانيتهم .

وطوبى لكم : أيها القادمون : متحولين من عصر الخُسر « الأوروأمريصهيونى » ، مقتلعين عن أرواحكم جهله وقصر نظره وافتتانه ، ناجين من تحقق لقدر لاريب فيه هو : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ... » — الأحزاب / ٦٢ .

وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً رسول الله !

سبتمبر ١٩٨٣

عن السجن والحرية

السجن :عندى لم يعد عنبر المتسولين الملىء بالجرب والقمل والمميت صيفاً وشتاء . ولم يعد عندى زنزانة التأديب المهينة لحبس كلب . ولازنزانة الحبس الإنفرادى : التى هى فى الأصل زنزانة لحجز المرضى بالجرب من الجنائيين :

السجن عندى هو كل أشكال القهر والتعدى على حقوق المواطن التى كفلها له الدستور ! – أى دستور إن شاء الله كان دستور صدقى باشا – سيظل بالدستور حد أدنى لحماية كرامة المواطن ولو كشكل يحفظ ماء وجه حكام الجور أمام الملأ العالمى . السجن عندى أن أكون مهددة فى كل لحظة بمن ينتهك بيتى ويدخله رغما عن أنفى ويعبث بأوراقى وكتبى وخصوصياتى وحُرُماتى ومن دون تصاريح أو أمر قبض أو أمر تفتيش أو حتى بطاقة هوية تؤكد أن هؤلاء الرجال الساقطين على رأسى هم فعلاً من مباحث أمن الدولة . السجن عندى هو الأحكام العرفية وقانون الطوارىء والقوانين الاستثنائية التى تبيح لوزير الداخلية اعتقال وسجن المواطن دون إبداء الأسباب !

عندما تم مد العمل بقانون الطوارىء أعددت شنطة لوازم السجن ووضعتها تحت مكتبى : ففى ظل قانون الطوارىء « يكاد البرىء يقول خذونى » لقد سجنت ٣ مرات بلا ذنب – (بمعنى أننى لم أتجاوز حقوقى الدستورية) – وبتهم باطلة وتحت أسماء قضايا وهمية : فما الذى يمنع أن أسجن بعد ذلك ألف مرّة ظلما ؟ ليس هناك ضمان يمنع اعتداء السلطة على حقوقى الدستورية : إن السلطة لا تتعامل معنا كمواطنين ولكن كرهائن أو أسرى تحت يدها وهى حّرة تفعل بنا ماتشاء : حتى الأسرى لديهم قانون دولى يحميهم

لكننا لا نملك إلا أن نستغيث برحمة الله – ونعم بالله – حتى هذه اللجان التى أقامتها بعض أحزاب المعارضة العلمانية تحمل هذه الأسماء المعسولة : مثل « الدفاع عن الحريات » و « حقوق الإنسان المصرى » مجرد لافتات مزيّفة تضيف إلينا الأحزان ولاتزيدنا إلا خبالا حيث إنها تتضمن بين أعضائها المسئولين شخصيات شديدة التخلف والقبح ولها رصيدها من السلوك المشبوه والبدائى المنتهك لقواعد وأخلاقيات الحرية وحقوق الإنسان ، حتى أننا بالمقارنة قد نصل إلى تفضيل شرطة الجور والعسف الحكومى عليها . فنجد أننا بهذه اللجان كالمستجير من الرمضاء بالنار وكالمخيّر بين المشنقة والكرسى الكهربائى .

ولو كنت معتقلة وجاءنى مندوب عن هذه اللجان سوف أرفض مقابلته وأقاطع معونته : الله الغنى :« إن الله يدافع عن الذين آمنوا » : هذه الآية الكريمة تظلل قلبى – وقلوب المؤمنين – بالندى والطمأنينة ولذلك فأنا لا أخاف شرطة الجور أبداً . إننى أقرأ القرآن كل ليلة قبل أن أنام وأنا أحكم إغلاق باب شقتى وأدعو الله أن يملأ بيتى حرساً من عنده يدافعون عنى ضد شرطة الجور والظلم والافتراء .

وحتى عندما يتم اعتقالى : يسكن قلبى سلام وأشعر أن السجن مكان يحفظنى فيه ربّى من شياطين الإنس والجن ومن الفتنة : وأعرف أن الله يريد أن يُقيم الحجّة على حاكم الجور حتى يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول على من ظلمها بالخوض فى حديث الإفك : « هلك فىّ فلان وهلكت فىّ فلانة » – كذلك دائماً يكون الأمر عندما يريد الله أن يُهلك إنساناً : حاكما أو غيره : يوقعه فى فتنة الظلم : فيبغى ويفترى الكذب على الأبرياء ويفتك بهم حتى يحق عليه القول فيدمره الله تدميرا : أما المظلوم فتشرق عليه الشمس دائماً حتى فى الليل والسجن والقبر .

عندما إعتقلونى فى ١٩٨١/٩/٢ كنت متقدمة بطلب للعمل فى كلية التربية للبنات بمكة المكرّمة وكنت أدعو الله بهذه الصيغة : « اللهم افتح أمامى طريق مكة للعبادة والرزق . »

وإذا بى أجد نفسى فى طريق القناطر للسجن والاعتقال : وصدّقنى لم أندهش ولم أحزن وقلت لابد أن الله يريد لى الخير فى هذا الاتجاه . وحوّلت سجنى واعتقالى إلى عبادة خالصة : ختمت فيها قراءة المصحف الشريف سبع مّرات وصُمت أغلب الأيام وصليت ليلاً ونهاراً ماشاء الله لى من الصلاة كما أحب :

وكرّست دعاء السجود ودعاء لحظة الإفطار بعد الصيام ودعاء الليل ضد حكام الجور والظلم فى مصر والوطن الإسلامى والكرة الأرضية – وتحول سجنى إلى فرار إلى الله وهجعة فى كنفه وخلوة للعبادة . وعندما ضاقت الزميلات العلمانيات بالضوء الذى أشعله ليلاً – لقراءة القرآن – فى عنبر المتسوّلين الذى ضمنى معهن شهراً : جاءتنى عقوبة من ضابط المباحث الذى أمر بتحويلى إلى زنزانة انفرادية : وكانت عقوبة مريحة فاصطنعت الغضب وأخفيت فرحتى فى

قلبى حتى لايتراجع عن القرار الذى أراد به تعذيبى فإذا به نعمة تنزل علىَّ من عند الله . وكما قال الله سبحانه وتعالى : « يانار[1] كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » – كانت عقوبة الحبس الانفرادى برداً وسلاماً على صافى ناز ! فقد التقت مع رغبتى فى أن أكون بغرفة وحدى لا أطفىء فيها النور ليلاً أبداً .

وكنت أردّد : « أليس الله بكاف عبده ؟ » بلى والله العظيم : فكما توقعت انتهى سجنى بالخير لى ولمصر كلها ولو لفترة شفى الله فيها صدور المؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم . وإن كنا قد خسرنا بعض الشهداء فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يهدىء حزن المؤمنين بقوله الطيب : « قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار » والحمد لله .

لقد مللت سؤالى عن حديث الإفك الذى أشاعوه عنى بأننى شيوعية : هذا افتراء ألفه ولحنه وغناه كل من أراد إيذائى وإننى لأسامح كل من يخوض فيه وأدعو عليه وأسأل الله أن يقتص لى منهم جميعاً قصاصه العادل . ولقد قلت للمحققين فى المرات الثلاث التى تم فيها اعتقالى بسبب هذه الكذبة السوداء : إنكم تروّجون للشيوعية وتحترمونها وتدعون إليها حين تلصقون تهمة الشيوعية بكل إنسان ترونه فاضلاً يغضب للحق والخير والجمال ويتحدث عن الثورة والإنسان وحق المستضعفين وهلاك المستكبرين حتماً والمفسدين فى الأرض .

إننى لم أكن ماركسية أو شيوعية فى يوم من الأيام وأعتبر الفكر الماركسى فكراً رجعياً لأنه يرجع بنا إلى ماقبل الإسلام ، وأعتبر الشيوعيين متجمدين وضد التطور وسلفيين : لأنهم يتبعون أسلافهم الذين كذّبوا الرسل وكفروا بآيات الله . نعم لقد كنت قومية متحمسة للقومية العربية والاشتراكية العربية كصيغة خلاص

(١) الآية ٦٩ من سورة إبراهيم .

لجماهيرنا ، ذلك وأنا متصورة أن الأساس فى كل هذا الفكر هو الإسلام ومنطلقات وتصورات الإسلام . ولكنى تُبت إلى الله بعد أن أثبتت لى تجربة عبد الناصر وصدام حسين وأمثالهما أن حركة القومية العربية تهادن الإسلام لمصلحتها لكنها كلما واتتها الفرصة لاتضرب إلا الإسلام ولاتذبح إلا المسلمين .

ولقد خرجت من هذا الفكر كما خرج يونس من بطن الحوت وهو مُليم لأنه كان من المسبحين . إننى وجماهير الوطن العربى لسنا فى حاجة إلى أى صيغة خلاص علمانية غير إسلامية من أى نوع إن الإسلام هو الصيغة الوحيدة التى تنفع لخلاص المسلمين وغير المسلمين وهو يشمل عروبتنا ومصريتنا وسودانيتنا إلى آخر أسماء أقطارنا العربية التى فتحها الإسلام لينقذ عباد الله بواسطة حكم أيديولوجيته الفذة الإلهية .

إننى بصراحتى وشجاعتى وثورتى على الظلم والجور والباطل لايمكن أن أكون إلا « **مسلمة** » لأننى من الذين علّمهم القرآن الكريم – كما جاء فى سورة الشورى آية ٣٩ : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . وهكذا ترى أن « المسلم » – بأمر القرآن – لايحق له السكوت على « البغى » أبداً : عندنا فى الإسلام السكوت على « البغى » : حرام : فهل أملك بعد ذلك أو أستطيع إلا أن أكون « **ثائرة** » على « البغى » ؟ يعنى أكسر أمر الله ؟ حاشاى !

عندما فصلتنى أمينة السعيد من عملى الصحفى بدار الهلال فى ١٩٧٩/١١/١١ – بعد منعى من النشر فى ١٩٧١/٨ – قلت لها : لقد فصلت نفسك فى واقع الأمر ولم تفصلينى : وعاقبت نفسك ولم تعاقبينى : أهذه هى نهاية أمينة السعيد ؟ مسكينة ! تصور أول امرأة تتقلد منصب رئاسة مجلس إدارة مؤسسة صحفية تتورط فى الشر وتقع فى فخ الظلم وتقوم بارتكاب أبشع جريمة يمكن أن يرتكبها مسئول فى موقع السلطة وهى جريمة : « الفصل التعسفى » المتزلف لأصحاب السلطان – وهى الجريمة التى يسميها شعبنا فى أسلوبه العامى البسيط : « قطع العيش » – بغية التجويع والإذلال : لكننى لا أجوع والحمد لله لأننى صائمة معظم الوقت . فيما مضى قام د . طه حسين بفصل الدكاترة زكى مبارك : فكتب زكى مبارك مقالاً يقول فيه : « سأشوى لحم طه حسين وأطعمه أطفالى ! » ولكنى لن أشوى لحم « أمينة السعيد » لأننى أفضل أن يتولى الله سبحانه وتعالى هذا الأمر عنى !

إننى مازلت مفصولة رغم الوعد الذى كان السادات قد أعلنه فى نقابة الصحفيين فى مارس ١٩٨١ : الوعد بعودة الصحفيين الذين أمر بفصلهم من أعمالهم بسبب معارضتهم لكامب ديفيد . ووقتها اتصل بى صلاح جلال نقيب الصحفيين وبشّرنى بأنه سيتم بناء عن أمر رئيس الجمهورية – الغاء قرار فصلى الظالم . وإذا بهم يأخذونى إلى السجن فى ٨١/٩/٢ وقلت للمحقق هذا تنفيذ غريب لوعد رئيس الجمهورية بعودتى إلى وظيفتى ! وبعد الإفراج عنى فى ١٩٨١/١١/٢٥ – قال لنا الرئيس مبارك:إن المفصول سيعود إلى عمله . ولكنى لم أعد(*) . وتحولت عملية عودتى بين الأستاذ صلاح جلال نقيب الصحفيين وبين الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة دار الهلال إلى لعبة :« حّبة ملح : عند الجارة ! » وبعد مرور عام كامل على وعد الرئيس مبارك أرسلت إليه برقية

---

* عدت إلى عملى ١٩٨٣/٣/٢٥ .

فى ١٩٨٢/٩/٢٥ أفيده بأننى مازلت مفصولة وتركت نسخا من هذه البرقية عند الأستاذ « **مصطفى أمين** »والأستاذ« **فتحى رضوان** » « **وجريدة الأحرار** » ليكونوا شهودا وحتى لايزعم أحد بأننى تكاسلت عن حقى أو أن رئيس الجمهورية لاعلم لديه بالظلم الواقع على المواطنين . ولعل استمرار فصلى يكون خيراً أراده الله لى مثل امتحان الصبر على المكروه ، لكن لاشك أن المسئولين عن تجويعى أنا وابنتى نوارة لن يصيبهم الخير أبداً ، بل هى فتنة الظلم أصابهم بها الله : مساكين !

تسألنى عن تجربة « الأوتوستوب » التى قمت بها مع شقيقتى الدكتورة فاطمة كاظم – التى كانت أول مصورة صحفية وأصبحت الآن مدرسة بجامعة أسيوط وهى كذلك محجبة والحمد لله – التجربة كانت فى بداية عملى الصحفى وسمّاها موسى صبرى رئيس تحرير مجلة الجيل وقتها : « أجرأ مغامرة صحفية لسنة ١٩٥٩ . »

إننى أنظر إلى هذه التجربة – وإلى كل حياتى التى سبقت التزامى بالحجاب منذ أدائى فريضة الحج فى يناير ١٩٧٢ – أنظر إليها نظرة نقدية للاستفادة والعبرة . وأجد رغم أننى كنت مسلمة بالإيمان والعقيدة فى كل لحظة من حياتى إلا أننى كنت مسروقة من إسلامى : كانت عقيدتى الإسلامية منفصلة عن سلوكى . كنت أعانى على المستوى الفردى من الانفصام بين العقيدة والسلوك وهو الانفصام ذاته الذى يعانى منه مجتمعنا ككل . فمجتمعنا ليس مجتمعا كافراً : هذا تشخيص خاطىء : مجتمعنا مسروق من إسلامه وهو يبحث عنه وسيجده بكل تأكيد إن شاء الله . ولاغرابة فى تلك الحقيقة : فمنذ مطلع القرن والمحاولات الشريرة كانت والسعى الدءوب كان لسلخنا عن إسلامنا

ولوى رقبتنا – حتى الكسر – لمحاكاة الغرب بكل أجنحته : الرأسمالية والماركسية . وكانت الحرب العلمانية معلنة بشراسة فى وجه المقاومة الإسلامية التى كانت تسعى لبعث النهضة المصرية من منطلقاتها الصّحيّة الإسلامية .

وللأسف انتصرت القوى العلمانية – بمساعدة أبالسة الماسونية والبهائية والصهيونية وكل من له مصلحة فى ضرب الإسلام – انتصرت تلك القوى ونجحت فى فصل الإسلام عن الدولة وتعاملت بعد ذلك مع الإسلام بأدب القرود أو نفاق القرود فكانت تُقبّله قبلة الموت أمام الجماهير وغالبيتها المسلمة توطئة لتركه جوار الحائط كعمامة متحفيّة لامكان لها فى العصر الحديث – كما زعموا ويزعمون قطع الله ألسنتهم إن شاء الله – وكان يجب لكى تتم عملية ضرب الإسلام واحتلال كل الأرض التى فتحتها العقيدة الإسلامية لإنقاذ البشر :

كان يجب أن نسرق نحن أبناء الإسلام من إسلامنا ليظل وحيداً ونظل عرايا الظهر بلا دفاع . وكان جيلنا نحن بالذات – مواليد الثلاثينيات – هدف هذا الاغتصاب الفاحش . فنحن الجيل الذى تم تمجيده من حيث كان هوانه وأعلن انتصاره من موقع هزيمته وتصّور حريته وهو يتنازل عن رأسه ويديه وقدميه لتكبلها سلاسل التبعية وثقالات التقليد . نحن الجيل الذى سمّى الإبداع : تقليدا وسمّى التقليد : إبداعاً ومعاصرة ! فكان الذى يبدع من تراثنا الإسلامى ويسهم فى استمرار امتداد الحضارة الإسلامية ، كان يُسمى : رجلا تقليديا محافظا وكان الذى يقلد وينقل عن الغرب ويحول نفسه إلى مندوب مبيعات لكل فكرة غربية ، كان يُسمى : رجلا مجددا مبدعا خلاقا ! نحن الجيل الذى ضيّع صباه وشبابه يتطلع بشغف إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفيتى : ينهل منهم الفلسفة والفن والشعر والثقافة حتى أنماط الحب والعشق والمعاملات ونظم الحياة والعلاقات بين الأفراد .

وليت هذا الشغف كان شغفا نقدياً يأخذ مايأخذ ويطوعه لاجتياجاتنا ويرفض مايرفض لأن مالدينا أفضل : لم يحدث هذا للأسف : كان شغفاً ببغاوياً مقلداً تقليد القرود : يتصور أنه بمحاكاته النماذج الأوربية والأمريكية والسوفيتية سوف يحقق لمصر نهضة وسبقاً . وفى بداية اشتغالى بالصحافة عام ١٩٥٥ – وكنت طالبة بالجامعة فى الثامنة عشر من عمرى – كانت القيادات الصحفية التى تعلمنا على يديها واتخذناها قدوة ومثلاً أعلى : كانت كلها قوى علمانية – من الأئمة الداعين إلى النار – وكانوا – مسروقين من الإسلام أيضاً – يوجّهون خطواتنا نحو كل سبيل يبعدنا أكثر عن الإسلام كانوا يحققون بنا مالم يستطيعوا هم أن يحققوه فى سبيل تنحية الإسلام عن حياتنا . ولم نكن نعى ذلك بوضوح لأنها كانت فتنة عظيمة ابتلانا بها الله وقد تاهت فيها رؤيتنا تماماً وزاغت فيها أبصارنا : وأذكر أننى عندما فكرت فى رحلة « الأوتوستوب » كان تفكيرى يسير على النحو التالى : إننى أريد أن أشاهد أوروبا العظيمة هذه التى يحكون عنها وعن ناسها : إننى شابة صغيرة مفلسة . كل شباب أوروبا المفلسين يطوفون العالم على طريقة « الأوتوستوب » هل يمكن أن أحاكيهم مع الحفاظ على تقاليدى كفتاة عربية مسلمة ؟ وكان أقصى مايدركه وعيى فى الحفاظ على تقاليدى كمسلمة هو : ألا أقرب الخمر والخنزير والمحرمات بين الرجل والمرأة ! وسافرت أنا وشقيقتى وطفنا أوروبا سيراً وتعباً ومشقة وجوعاً – ومازلت إلى الآن أعانى من تمزق فى عضلات كتفى اليمنى بسبب حملى حقيبة الظهر الثقيلة التى كان بها متاعى وكلما اشتدت بى آلام هذه الكتف أحمد الله وأقول اللهم كفر بها ذنب حماقتى – وكتبت هذه التجربة حلقات فى مجلة الجيل الجديد وصفق لنا الجميع وتصورت أننا نجحنا فى التجربة لمجرد أننى وشقيقتى التزمنا بالصلاة وتجنب المحرّمات . لم أتبين ماأراه

الآن بوضوح : أن الخطأ فى التجربة يبدأ من أنها لم تخرج أصلاً من تصوّر إسلامى يجعلنى أقرر أنها تجربة لالزوم لها على الإطلاق وأننى خرقت بها حدوداً وأصولاً إسلامية كثيرة تبدأ بالزى الذى كنت أرتديه والذى تشبهت فيه بغير المسلمات وتنتهى بأننى : شغلت نفسى بلغو من التعب والمشقة وكان يجب أن أوفر طاقتى للجهاد فى سبيل الدفاع عن نفسى وتحريرها من الغزو العلمانى الهمجى نصرة لله وللرسول . إننى أعتبر عام ١٩٧٢ هو العام الذى أعدت فيه إعتناق إسلامى وحررت فيه نفسى من الاستعمار العلمانى وعالجت فيه روحى من الانفصام بين العقيدة والسلوك .

لقد تمت سرقة نفوسنا قبل أن تسرق فلسطين وكل الأرض الإسلامية المحتلة وإننا لن يمكننا تحرير فلسطين وأرضنا المحتلة حتى نقوم أولاً بتحرير أنفسنا من كل الرؤى غير الإسلامية : ليس قبل أن نقوم بإعادة كل المسروقين من الإسلام إلى الإسلام : إننى لاأسعى نحو « تكفير » المجتمع على العكس : أسعى نحو « أسلمة » المجتمع . وأنا أدعو أعضاء لجنة الدفاع عن الثقافة القومية أن يبدأوا بأنفسهم وأنفسهن ويدافعوا عن الثقافة القومية فى عقولهم وصدورهم وقلوبهم – وهن أيضاً – فعندما نتحرر بالعودة إلى الإسلام ونفك عنا طلاسم السحر الغربى : العلمانى : اللا إسلامى لنعود بشراً بعد أن ظللنا بجعاً مسحوراً على مدى أكثر من نصف قرن : عند ذلك فقط : سوف تتحرر فلسطين وتتطهر من الرجس الصهيونى والنجس اللاإسلامى وسوف نرى أمتنا هذه الذليلة المهانة وقد استعادت كل أوراق اللعبة لتصير ١٠٠٪ بين أيدينا !

إن المعارضة القائمة معارضة عرجاء لأنها تمثل المعارضة العلمانية فقط ومثل هذه المعارضة لاتمثل الشعب وقاعدته الجماهيرية العريضة التى تعتنق الإسلام وتجد فيه دنياها وآخرتها . إن هذه المعارضة لايمكن أن تعبر عن مصالح الجماهير المصرية لأنها لاتنطلق من التصورات الإسلامية التى تنطلق منها مصالح الجماهير المسلمة . إن جماهيرنا محتاجة إلى من يعيد إليها طوق نجاتها – (الذى هو الإسلام) – محتاجة إلى من يعيد إليها أبناءها المسروقين منها ومعهم كل مسروقاتها الأخرى . وأنا لا أفهم هذه المعاملة غير العادلة التى تجعل الحكومة تسمح لثلاثة أحزاب معارضة علمانية بممارسة نشاطها مع إصدارها للصحف وإقامتها الندوات ومإلى ذلك بينما لاتعطى الحق للمعارضة الإسلامية بالتواجد أصلاً : بل تسمح للمباحث بتعويق تنفيذ قرارات المحاكم التى تصدر برفع التحفظ عن الصحف الإسلامية والمطابع الإسلامية : مثل قرار إصدار مجلة الدعوة الموقوف وقرار رفع التحفظ عن مطابع المختار الإسلامى الذى لم ينفذ حتى الآن ١٩٨٢/١٢/١ . وتواصل المباحث اعتقال الشباب المسلم وتتربص به عند كل مسجد وتمنع صلاة العيد فى الخلاء كما تأمر بذلك السنة المحمدية ثم تواصل إقامتها لكاريكاتير الحوار هذا الذى يدور بين وزارة الداخلية والمسجونين المقيدين الواقعين تحت رحمة وإرادة شرطة المباحث ، ويتم هذا الامتهان يومياً ويعُرض تحت سمع وبصر الجميع ويطلبون له كذلك المباركة والإعجاب والإشادة !.

ويصل الألم بالمعارضة الإسلامية حداً لامزيد عليه حين تتولى صحف المعارضة العلمانية تبنى قضاياها والدفاع عن معتقليها : وطبعاً يتم هذا التبنى غير المنطقى بأسلوب : « طبيخ الزوجة لضرتها ! » ولك أن تتخيل طبعاً طعم هذا الطبيخ والعياذ بالله !

إننى أطالب بإقامة حزب « التجمع الوطنى الإسلامى التوحيدى » تتجمع فيه كل فصائل المعارضة الإسلامية من أقصى مايقال عنها راديكالية إلى أدنى مايقال عنها معتدلة ! وبظهور هذا « التجمع الإسلامى » سوف تستقيم المعارضة المعبرة عن قضايا ومصالح الشعب المصرى : هذا إذا كانت الحكومة جادة حقاً فى رغبة الاستماع إلى صوت المعارضة الشعبية الصادقة : لأنه من دون إتاحة الفرصة لصوت المعارضة الإسلامية للتعبير عن نفسه تكون الحكومة قد فضّلت أن تواصل طريقها مغمضة العينين عن رؤية وجه شعب مصر ومسدودة الأذنين عن سماع صوته . وصدقونى إن « كرباج الحوار » هذا الذى يدور فى السجون بين السجّان والسجين لايحمل صوتاً ولاينقل صورة : إنه خداع خداع خداع .

ألا هل بلّغت : اللهم فاشهد !

١٤٠٣/٢/١٥

١٩٨٢/١٢/١

« أيام كنا نتمدد كى نهجع وسط القتلة »
إطلالة فى بوابة سوداء

فى الستينيات ، وبالتحديد بعد يونيو ١٩٦٧ ، كنت معجبة بقصيدة للشاعر والكاتب المسرحى الألمانى برتولدبريخت اسمها : « **إلى الذين سوف يولدون بعدنا** » ، وكانت هذه القصيدة تبدأ بأسطر تقول :

« أنا أحيا فى أيام حالكة الظلمة ،
معتوه من يتحدث فيها ببرىء الألفاظ ،
الجبهة لاتلمع إلا فى وجه بليد الإحساس ،
من يضحك هو من لايشعر بأنين الإنسان
فالجاهل هو من لم يعلم بعد النبأ الفاجع ! »

كنت أحفظ القصيدة كاملة لكنها ضاعت من ذاكرتى ومن درج مكتبى ولم يتبق بارزا منها فى قلبى إلا صرخة تطعنه دوماً بالندم وتأنيب الضمير :
وهذا الذى جعلنى أعاهد الله ألا أهجع ثانية أبداً !

كتب **بريخت** تلك القصيدة يبرىء ذمته من الحكم الهتلرى ، وكان للحكم الهتلرى إيجابيات كما كان للحكم الموسولينى ، فقد بنى **هتلر** وبنى **موسولينى** الشواهق من الاقتصاد والصناعة والسدود والجسور والأنفاق ورصف الشوارع وتعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وزرع القمح والبطاطس – ولأدرى إذا كان قد زرع السافانا أم لا ! – وحقق **هتلر** لألمانيا إنجازات وهيبة حربية هائلة فى مواقع كثيرة ، فاجتاح فرنسا ودخل روسيا وانتصر شرقا وغرباً وشمالاً وجنوباً – قبل أن ينكسر دفعة واحدة ويسقط هو وموسولينى من حالق – لكن **بريخت** عندما وقف مع من وقف ضد **هتلر** ، قبل الهزيمة وفى قمة إيجابياته تلك التى سيذكرها التاريخ حتما ، لم يكن يرى فيه غير سفاح شاذ يتفنن فى القتل ويبتكر له الوسائل التى تفوق الخيال . وكانت الشائعات رغم القهر تلف المدن عن معسكرات الاعتقال والتعذيب بالسلخ وعن الأفران وحرق الناس أحياء . وكان الناس فريقين : **صامتاً** يمضغ المرارة فى الخفاء أو **مرتشيا** بالإيجابيات والمنجزات يتمتع بما يصيبه من منافع طالما النار لم تمس ثوبه شخصياً . ولم يكن فى قاموس هؤلاء الناس آية مثل الآية التى علّمها لنا القرآن الكريم : ﴿ **واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** .. ﴾ لتخبرهم أنهم سوف يدفعون ، إن آجلاً أو عاجلاً ، عقوبة صمتهم وسكوتهم وقبولهم رشوة الإيجابيات والمنجزات المادية للحاكم الطاغية فى مقابل التغاضى والعفو عن سحق الروح وتشويه الفطرة وإهدار عزة الإنسان – أكرم خلق الله – وتعذيبه بالشبهة والظن ، بل **وبالمزاج** من دون جريرة اللهم إلا إرضاء لشهوة البطش والبغى والجور .

النصف الأول من الستينيات : كان مطلع شبابى وباكورة نجاحى المهنى وانغماسى الرومانتيكى فى الثقافة والأدب والفن . لم يدس لى أحد على طرف : كنت أصغر من أن يُشم بى خطر على أى مستوى وكنت أحب **عبد الناصر** بصفته حلم التحرر المصرى !

النصف الثانى من الستينيات : كان بروز نجاحى المهنى وتوهجى الثقافى الذى وعى الخديعة وحمل الهموم وتفقّه فى الاكتئاب لمّا أدركته الهمسات المختبئة عن المجازرَ فيما وراء السجون . ولم يدس لى أحد وقتها كذلك على طرف : لأننى كنت من الفريق الذى أتقن مضغ المرارة فى الرمز والإيحاء ولغة التجريد التى لاتشكل خطرا على أى مستوى أيضاً ! وبدأت أكره **عبد الناصر** بصفته مبدّد الحلم ومضيّع الآمال خاصة بعد قبوله قرار ٢٤٢ الذى يقرر حدوداً آمنة معترفاً بها لإسرائيل !

كنت كل يوم ، فى النصف الثانى من **الستينيات** ، أردد قبل أن أرقد للنوم : « **أيام نتمدد فيها كى نهجع وسط القتلة !** » وحينما كنت أقول ذلك لم يكن تصورى للوحشية قد ارتفع أبداً إلى مستوى الواقع الذى بدأت أقرأ عنه فيما بعد ، حين خرج الضحايا من زنازينهم ينسلون . خرج الضحايا فيالق من آلاف مؤلفة من خيرة رجالات مصر وشبابها وشيوخها ونسائها ، وكأنهم أناس مدينة مسحورة فك الله عنها السحر فإذا بهم ينطقون ويكتبون ويمشون فى الأسواق يعرضون أمام أنظارنا مالم تشهده أعيننا من قبل ومالم يكن بإمكان آذاننا أن تصدقه حتى لو سمعته .

ولأن الوأد في السجون كان كتلة هائلة لذلك كان الخروج بدوره زحاماً شديداً ودقا عالياً ونهرا دافقا زاخراً من **أدب « الشهادات »** بدأ منذ مطلع **السبعينيات** ولم ينقطع حتى اللحظة ، فعلى قدر حجم الجرائم تتضخم الملفات وتكتظ الأوراق ، ولاحيلة فى تخفيض ، اللهم إلا إذا سمحنا لأنفسنا أن نخدّر ضمائرنا ونسقط وعينا ونسطّح إدراكنا ونواصل مسيرتنا غير الميمونة نأكل لحوم بعضنا وجباهنا تلمع بلادة وعتها ! لكن معرض الكتاب أخيراً أثبت أن الشريحة القارئة فى مصر ذات جباه لاتلمع ، بل هى مكفهرة جداً ، والحمد لله ، فهى لم تبحث إلا عن الكتاب الذى يزيد وعيها ويوقظ ضمائرها ، وعلى سبيل المثال بيع من كتاب « **البوابة السوداء ، التاريخ السرى للمعتقل** » مايربو على الألفى نسخةٍ فى خلال الأيام القليلة الأولى لمعرض الكتاب الدولى رغم أن اسم المؤلف **أحمد رائف** لم يحتل بعد فى دوائر التأليف الشهرة الجديرة به . فإقبال الناس كان منجذباً أساساً صوب الموضوع : « **فتح ملف التعذيب فى الستينيات** » .

فى « **البوابة السوداء** » يمتد نَفَس **أحمد رائف** طويلاً إلى ٦٠٠ صفحة ليحكى ، فى أسلوب فنى رفيع مصقول بدماثة وهدوء وفكاهة حادة ، تجربته الشخصية إبتداء من ٢٥ أغسطس ١٩٦٥ حين أخذته مباحث أمن الدولة ، شاباً فى الرابعة والعشرين مواطنا مصرياً شريفاً مثقفا فناناً متفتحا على القراءة والتأمل والإبداع ، لتلقى به فى فوّهة جحيم ، لم نر له شبيها إلا فيما قرأناه عن أفران النازى فى الأدب السياسى العالمى ، حتى أخرجه قدر الله سبحانه وتعالى فجأة هو ومن معه ، خروجاً شبيها بخروج يونس من بطن الحوت ويوسف من قاع البئر وقاع السجن ، مع فارق وحيد أننا نحسب أن يونس ويوسف عليهما السلام قد لقيا بعض الرحمة من الحوت ومن أفاعى البئر وسجّانى فرعون ؛ رحمة لم يرها مواطنون مصريون فى سجون الستينيات ممن هم ، بالميلاد وبالبطاقة الشخصية أو العائلية مواطنون مصريون أيضاً مثلهم !

وفى إطلالة داخل تلك « **البـوابـة السـوداء** » ، أرّقتنى أشياء كثيرة طاردتنى حتى صارت فى ليلى كوابيس ، أولها ليس تفاصيل التعذيب المروّع بل الأسئلة التى لن تبرحنى أبداً : أين كنت أنا ؟ أين كنا نحن ؟ كيف تمكنوا من إخفاء كل هذا ؟ ماهو البعد المعاصر لمثل تلك الأيام ؟ هل هو يتكرر بالفعل ؟ ألا يمكن هذا طالما أن قدرة الإخفاء واردة ؟ ألم يكن من الممكن أن ينوء الكاتب تحت عبء الذكريات فلا يستحضرها لأن استحضارها بالتأكيد تعذيب جديد ؟ ماذا لو لم يبادر **أحمـد رائـف** واخوانه بالإدلاء بشهادتهم الوثيقة ؟ هل كنا سنظل مستغفلين إلى الأبد ؟ ماذا تعنى كلمات مثل : « **إيجابيات** » و « **إنجازات** » وسط أزيز الأتون فى أفران تحرق البشر أحياء على كل صعيد ؟ هل إماطة اللثام عن هذه الحقائق هى « **عقدة الماضى** » كما قال قائل فى مقال ؟ أم هى « **شهادة الماضى** » التى لاتتقادم مع الزمن والتى لايمكن أن نضمن لنا « مستقبلاً » من دون مجابهتها ودراستها وتحليلها والتحقيق فيها ووضعها حلقة فى آذاننا وعدسة لاصقة فى أعيننا ، لكى لانظل أبد الدهر دواباً ندور فى ساقية الطغاة نسقى لهم بدمائنا ودماء أولادنا وأحفادنا بذور إفسادهم فى الأرض والعياذ بالله .

١٤٠٦/٦/٢
١٩٨٦/٢/١١

تنويعات على مسألة الحجاب

أجلس على شاطىء رأس البر فى الأسبوع الأخير من شعبان . لأرى فتاة تخطت الثانية عشرة تلبس « المايوه » البحر ملىء بالأطفال كأنه قد خصص لهم وحدهم . الأمهات كلهن محجبات يجلسن على الشاطىء وبعض الفتيات والشابات ينزلن البحر بالبنطلون و « البلوزة » أو جلباب سميك طويل : منظر يزعج بلا شك رواد الدعوة لمحاكاة أوربا وخلفائهم ممن تمنوا طوال الخمسين سنة الماضية أن يروا شواطئنا نسخا منقولة من شواطىء « الريفييرا » و « ميامى » وشواطىء اليونان وإيطاليا وبيروت قبل الحرب ورغم الحرب !

ولذلك جلست مبتسمة ابتسام المنتصر :

رغم كل شىء ينتصر الضمير الإسلامى فى كنانة الله ، ويتفتح الوعى رويدا رويدا بالعقيدة الهوية : « الأيديولوجية الإسلامية » ويقرر المصريون أن تعكس شواطئهم أحكام دينهم !

« الحمد لله » : قلتها وقلبى يقفز مع الأمواج جذلا .

الأسباب التى تملأ نفسى بالفرح هى التى تملأ بعض الكتاب الآخرين بالأسى أو الغم والله أعلم . فى حديث منشور بجريدة الجمهورية ٦ مايو ١٩٨٣ ، نقلا عن جريدة لبنانية أجرى محررها المقابلة يقول الأستاذ توفيق الحكيم : « الشباب صاروا هم السلف : يريدون أن يشدونا إلى الوراء . »

لن أناقش الأستاذ فهو يريد أن يتحدث برأيه ، وقديما نادى عبد العزيز فهمى باشا بإنقاذ اللغة العربية من الحرف العربى وطالب بكتابتها بالحرف اللاتينى واعتبر هذا المطلب وسيلة إنقاذ للغة العربية من الجمود والموت : فنحن يجب أن نعلم ونتعلم – من دون أن نفتح أفواهنا –من رواد حركة التغريب فى العشرينيات أن محاكاة السلف « الغربى » اللاتينى : هى التقدم والأصالة وطوق نجاة الإنقاذ أما استلهام السلف « العربى » فهو التخلف والجمود : حتى ولو كان السلف اللاتينى مرتبطا بالخزعبلات وكان السلف العربى هو التوحيد واليقين القرآنى والحرف العربى الذى صار عماد الفن الإسلامى على مدى ١٤٠٠ عام متصلة فى حيوية دافقة !

●

ياأسفا على « أعمدة التنوير » الصامدة رغم « زحف الظلام » – على حد تعبير أحد الكتاب العلمانيين – وتبحث عن المقصود بهذا « الظلام » الزاحف فتجد أنه كل بشائر أو دلائل لزحف الصحوة الإسلامية التى يتوق إليها الشباب حين خاب أمله فى القيم الغربية وصار يعرف ماهو النور الحقيقى والضياء القائد لمسيرته نحو المستقبل الكريم بعد أن تم شفاؤه من عمى الألوان الذى قاده منذ مطلع القرن – مع الأضواء المخادعة – نحو إشكاليات ومشكلات فى حاضره نتجت عن نفسه التى تمت سرقتها لتسهل بعدها سرقة أرضه وإرادته المستقلة .

أذكر منذ ثلاثين عاما – وهذا يعنى عام ١٩٥٣ وأنا لم أتجاوز بعد السادسة عشرة من عمري أن قرأت بمجلة روزاليوسف مقالا للأستاذ/ إحسان عبد القدوس يبدى فيه العجب والتعب لأنه كان يجلس على أحد شواطىء الإسكندرية الرفيعة ووجد شابة لاتنزل البحر – رغم كونها متعلمة ومستنيرة ! – لأنها ترى أن لبس « المايوه » أمام الرجال : حرام !

وتساءل وقتها الأستاذ عبد القدوس : هل لايزال بيننا عقليات تفكر بهذا المنطق ؟!

وقتها لم أكن ألبس المايوه ، ولالبسته بعدها ، لكن لاشك أن تساؤلات الأستاذ إحسان عبد القدوس وجيله من الكتاب العلمانيين كانت تحفر نفسها فى عقلى وعقل جيلى وتسرقنا بأنظارنا نحو الغرب ونماذجه بحيث كان جيلى يشعر أن واجبه الوطنى إزاء مصرنا المحروسة هو : أن نصنع من أنفسنا لها ، نتاجات مصبوبة فى قالب النموذج الأوروبى أو الأمريكى أو السوفيتى .

●

وعندما ظهرت وقتها – أو بعدها بعام – كاتبة فرنسية شابة اسمها « فرانسواز ساجان » أصدرت وعمرها ثمانية عشر عاما رواية « صباح الخير أيها الحزن » تحكى فيها تجربتها العاطفية والجنسية الجريئة : أزعجونا لسنوات تبكيتا ومعايرة لأن مصر لم تخرج حتى ذلك الحين نصف أو ربع فرانسواز ساجان ، حتى إننا كنا نسير مطاطئات الرأس يشملنا شعور بالخيبة و « الخيانة الوطنية » عندما تعدينا الثامنة عشرة وشارفنا العشرين من دون أن نمر بتجارب فرانسواز ساجان وبالتالى لم نكتب أى صباح خير للحزن أو حتى مساء خير ! واكتفينا بأن نقص شعرنا ونرتبه مهوشا نازلا على أعيننا التى نرسم فيها تعبير حزن وهَمْ بلا سبب اللهم إلا سبب أن أنوفنا ليست طويلة بما يكفى لاستحضار شبه فرانسواز كاملا ! .

كانت القيادات الفكرية فى مطلع شبابى فى الخمسينيات ، ثم أوجه فى الستينيات ، كانت كلها قيادات علمانية – أبناء الرواد العلمانيين التغريبيين أمثال لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى – ممن تمت سرقة أنفسهم ، بوعى منهم أو بلا وعى ، نحو محاكاة الغرب بكل أجنحته ، وكانوا يشغلون المواقع المؤثرة فى الإعلام والنشر والتوجيه ، وكانوا يريدون أن يحققوا بجيلنا مالم يستطيعوا أن يحققوه هم فى سبيل الابتعاد عن تقاليد الإسلام وتصوراته ورؤاه : ليأتى بعد ذلك د. لويس عوض ليقول إننا فى نهضتنا لسنا سوى ناقلين عن الغرب حتى فى ثورتنا واحتجاجنا على الغرب !

●

ولاشك انهم لم يلصقوا فوهة المسدس بين أعيننا لكى يرغمونا على الانصياع لأفكارهم لكنهم فعلوا كل مابوسعهم ليحببوا ويزينوا ويعظموا النموذج الغربى وعلى وجه الخصوص النموذج الغربى للمرأة التى اصطلح عليه بالاسم الحركى : « المرأة العصرية » .

●

كانت هذه الكلمة : « المرأة العصرية » هى الآلة الجهنمية لنزع المخ والتى تم تسليطها على جيلنا بإلحاح . و أعترف أننى – مع إيمانى المتأصل بالإسلام دوما – كنت فى تلك السنوات من أشد المستجيبين لنداءات هذه الآلة الجهنمية لنزع المخ وهذا هو الذى جعلنى بعد تخرجى فى الجامعة عام ١٩٥٩ أندفع لأقوم بتجربة « الأوتوستوب » لأرى هل يمكن للفتاة العربية المسلمة أن تلف العالم بملابس الكشافة مثل الفتاة الأوربية « الشجاعة » : دون أن تتكلف شيئا يذكر وذلك مع الحفاظ على تقاليدى كعربية مسلمة .

وعدت من الرحلة وقد اعتبرتها ناجحة إذ حافظت فيها على مدلول ضيق حددته لمعنى « تقاليدى كعربية مسلمة » وكتبت التجربة فى سلسلة تحقيقات صحفية حينذاك تحت عنوان مثير هو : « أجرأ مغامرة صحفية لعام ١٩٥٩ »- (أتذكر هذا العنوان الآن وأشعر بالخجل وألحظ كمية التشجيع الذى كان يحرزه الخطأ !) – وحين أرجع بنظرة نقدية لإعادة تقييم هذه التجربة أجد أننى خرقت بها أصولا وحدودا إسلامية كثيرة ماكان ينبغى أن أخرقها لو أننى انطلقت وقتها من تصور إسلامى كامل وسليم .

وكان يجب أن تستوقفنى أول بديهية إسلامية وهى : عدم جدوى هذا اللغو من التعب والجهد حيث كان يجب أن أصرف جهدى وطاقتى فى معرفة دينى بشكل أعمق وألتزم بعقيدتى التزاما سلوكيا يمكننى من تحرير نفسى وعقلى من الغزو الغربى المدمر لشخصيتى والمعادى بالتالى لمصلحتى على المستوى الفردى ومصلحة وطنى على المستوى العام .

إيه ياشاطىء رأس البر .. كم أحسد شباب هذه الأيام الذى وعى الفتنة الكبرى ونظر إلى الأجيال التى سبقته وأدرك أنها أعلنت انتصاراتها من مواقع هزائمها ، وسردت أمجادها من سجلات هوانها وتصورت حريتها فى لحظات تنازلها عن رأسها ويديها وقدميها لسلاسل محاكاة الغرب وقيود التغريب ، الشباب قد وعى كل هذا واختط طريقه بأصالة صوب الإسلام .

نعم : وصدقت ياشاطىء رأس البر بمشاهدك التى لم تؤذ عينى الإسلامية بعرى أورقاعة أو تبذل . والذى عرف كيف لايحاكى الشكل ، سوف يعرف –

بالتأكيد – كيف لايحاكى المضمون : كيف يلفظ الفكر المتناقض مع تصورات عقيدته وانطلاقاتها وبالتأكيد سيظل التغريب ودعاته مثل « بقعة الزيت على سطح الماء » لن تندمج ولن تختلط فى مياه المحيط القوية الأصيلة ، هذه الصورة لبقعة الزيت على سطح الماء أستعيرها من الدكتور زكى نجيب محمود حين قالها وهو يتحسر فى مقال له منذ شهور ، ويسجل فشل حركة التغريب والعلمانية لأن علماء الدين وممثليهم فى القرى والنجوع كانوا دائما أقرب وألصق بفكر الشعب المصرى واحتياجاته واستجاباته : أكثر من دعاة الفكر الغربى وفقهاء ثقافته : ولأجل ذلك يتحسر الدكتور زكى نجيب محمود ، ولأجل ذلك : أحمد الله كثيرا .

يونيو ١٩٨٣

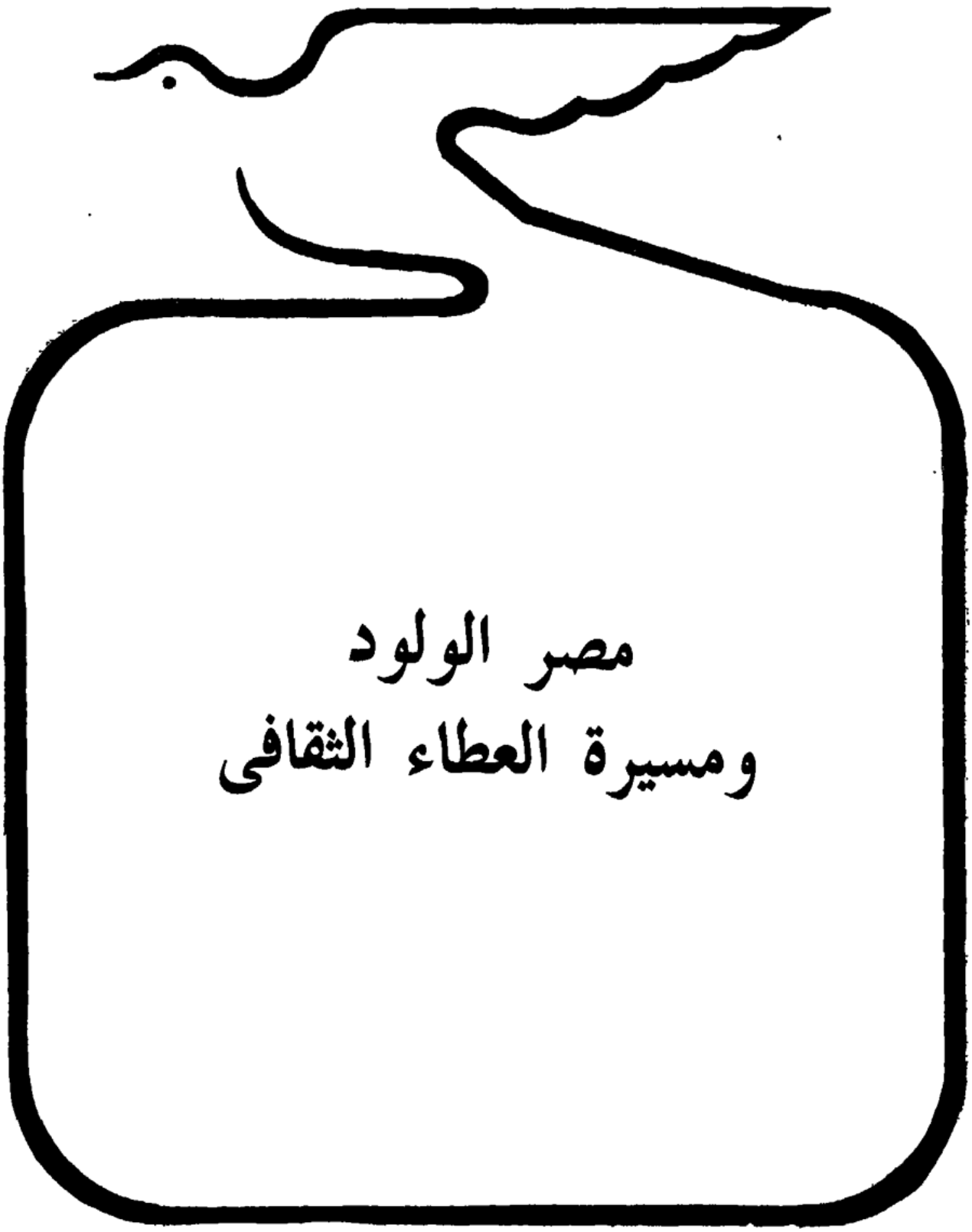
مصر الولود
ومسيرة العطاء الثقافى

الحلقة الأدبية تبدو هذه الأيام هائمة حول المقابر تنوح على الذاهبين فيما يرتفع صوت الاستاذ توفيق الحكيم ليعلن فى جريدة الأهرام ١٩٨٣/١٠/٢١ أن مصر لم تنجب بعد جيل الثلاثينيات !

التمساحية واضحة فى دموع الباكين فى سرادقات العزاء الأدبية والمسرحية لكنها فرصة لتمرير كثير من المغالطات الثقافية والأحكام النقدية المفتقرة إلى الموضوعية . ونبقى على إدراك واع بالمرح الجياش الذى يتمتع به الأستاذ توفيق الحكيم والذى يجعله لايكف عن الضحك والإضحاك ، فهو كمثل الطفل الذى يحب أن يلعب وليس ماقاله عن « الأجيال » سوى جانب من لعبه ورغبته فى المناوشة فلا يمكن أن يكون الأستاذ جادا فيما قاله ، ويفهم منه أن المسيرة الثقافية فى مصر قد توقفت بعد الثلاثينيات وأجدبت بعد الأسماء التى ذكرها ، لسبب بسيط هو : أنه يؤمن أن مصر عمرها سبعة آلاف سنه وأنها خصبة ولود . والذى يؤمن بهذا كيف يتصور أن مصر – لاسمح الله – قد ماتت ثقافيا وانتهى عطاؤها بعد الثلاثينيات ؟!

ويدأب البعض على ترديد أ ء معينة ، ليست عبقرية بالضرورة أو تافهة ، لكنها بالتأكيد ليست وحيدة عصرها ، وذلك للإيهام بأنها عطاء العصر وأفضل مافى سوقه ، فيتم تزوير كميه وكيف الحصاد الثقافى وفق أهواءٍ ماأنزل الله بها من سلطان . وبما أن سواد النقاد ، ومن خلفهم بقية الناس ، يعيشون بالدفع الإعلامى ، مستسلمين للإلحاح ، فقد استطاعت أسماء عديدة ، كثر ترديدها وتكرارها ، أن تتسلطن على مقعد القيادة الأدبية أو المسرحية أو الفنية لزمانها .

ومن هذه القاعدة خرجت مؤامرات الاغتيال للمواهب الفنية والعلامات الثقافية التى يتم الاتفاق على قتلها بواسطة إحكام الصمت حولها بحذفها من قائمة ودائرة الترديد الإعلامى ، ويصبح من السهل على أى متمكن من مساحة نشر فى الصحف السيارة ، وغيرها من أبواق الإعلام أن يقرر بحسم نهائى من هم أدباء العصر وزواد الزمان وأعمدة التنوير وقادة الشعب الروحيين – ونتيجة لذلك لايتم تصعيد دور سلامة موسى الثقافى والفكرى والحضارى فوق سيد قطب فحسب بل نصل – بالصمت والخوف – إلى اعتبار – مجهودات سيد قطب صفرا إلى جوار ماقدمته الراقصة فريدة فهمى وأحرزته برقصها لمصرنا المحروسة !

وحين يبدأ لسان أمين فى التنفس الطبيعى لخلق توازن يخفف من غلواء هذه الأحكام الإرهابية المطلقة فى مسيرتنا الثقافية والحضارية ويطرح على الأقل وجها آخر يعبر فى حقيقته عن المصالح الروحية للغالبية الشعبية فى مصر وسائر الوطن الإسلامى يهب الذين احتكروا الكلام لسنوات نائحين ساخطين على هؤلاء الذين – بزعمهم – « يلوون عنق الواقع وحركة التاريخ » ويهددون « حركة الواقع » بـ « التراجعات الاجتماعية » إلى آخر هذه الرطانة الفارغة التى تمتلىء بها جعبة العلمانيين !

إلا أن هذا الإرهاب لايمكن أن يمنع الناظر نظرة موضوعية صادقة إلى المسيرة الثقافية والاجتماعية المصرية ليرى – بوضوح – أن تلك المسيرة كانت دائما – منذ مطلع القرن – متفرعة إلى فرعين ، لكل فرع أهله وناسه ومعاييره ، وهما :

١ – فرع العلمانيين المتوجهين نحو المدد الثقافى الغربى ، وكانت الأسماء البارزة فى هذا الاتجاه على رأسها أحمد لطفى السيد . وأطلق هؤلاء على أنفسهم « جيل عصر التنوير » . لكن مع هذا التقييم الشخصى لأنفسهم كان هناك تقييم آخر يرى فيهم زعماء لتجارة شنطة ثقافية جلبت معها إلى أرض الإسلام ومعقلها ، العلمانية كصندوق أذى أراد أن يسلب مصر أصالتها وشخصيتها وانبعاثها المتطور من نفسها وذاتها الإسلامية العربية . ولقد استطاع الباقون – من هذا الفرع العلمانى – أن يروا بأعينهم الآن سقوط أطروحتهم وزوال سلطانهم شعبيا مما يدفعهم إلى الانتحاب عالياً .

٢ – فرع الإسلاميين العربيين الذين حملوا دائما لواء المقاومة للدفاع عن الثقافة القومية المعبرة عن الذات المصرية التى تمثل نبض الغالبية الشعبية المتكون من الإسلام وعروبته . هؤلاء المجاهدون ، ثقافيا وفنيا وأدبيا ، كان منهم عظماء لا تذكرهم وسائل الإعلام السيارة لأن الصحافة السائدة وُلدت علمانية ، وتم توظيفها منذ نشأتها لتلميع « كوادرها » وتثبيت قيمها وتمهيد الأرض لأهدافها ومن أجل ذلك كان جهدها فى إطفاء وتشويه خصومها فى الثقافة والفن والأدب وأوجه الإبداع ككل .

وظلت المسيرة الثقافية فى مصر حتى يومنا هذا بفرعيها هذين : لم يتوقف أى منهما عن الفعل الثقافى الذى يعبر عنه . وقد بدا الفرع العلمانى – خاصة فى سنوات الخمسينيات والستينيات – مكتسحا مسيطرا على مفاتيح الدعاية

والإعلام مما جعله يظن لوهلة أنه الوحيد المتواجد على أرض مصر المحروسة . لكنه مالبث أن تلفت ووجد أنه كان واهما ، وأن مدا ثقافيا إسلاميا يكسر سجنه وينزع الكمامة من على فمه ويصنع أعلامه وصحافته لكى يقول : إنى هنا وقد كنا دائما هنا وإننى أقبل التحدى الفكرى والحضارى بينى وبين العلمانيين شريطة المنافسة الشريفة – فى طقس الحرية – لنرى أينا يملك قلب الناس ويعبر عن طموحاتهم الثقافية ومصالحهم الحضارية ، وأينا الذى « يلوى عنق الواقع » ويزور « حركة التاريخ » ، وأينا الذى – بتنكره لعقيدة الناس وأحكامها – يتهاوى حقا فى « التراجعات الاجتماعية » ! من أجل هذا التحدى ، الذى تمثل فى المد الثقافى الإسلامى وصحوة الأمة على وعيها الأصيل بمصلحتها ، ارتفعت العقيرة العلمانية – أخيرا – بالنواح والعديد أسفا لأن – عتاولة العلمانيين – اكتشفوا أنهم – رغم جهد السنين والدأب الرصين – لم يتمكنوا بعد من قتل الرؤية الإسلامية فى الثقافة والناس ولو للحظة واحدة .

وتستمر مصر الولود فى العطاء على درب الإسلام بالمزيد من الثقافة وفق الرؤية الإسلامية ، بقيادة الفن التشكيلى الذى نراه ينهض معافى من كبوة « التشخيص » الوثنى ليستعيد منطقه ورؤاه الإسلامية ولغته السليمة – متواصلا مع ماضيه – على يد فنانين مجاهدين يولدون كل يوم بالإسلام وفى الإسلام .

ديسمبر ١٩٨٣

الفنان المسلم و ... بيكار

فى عدد جريدة الأخبار الصادر ١٩٨٢/٢/٢٦ كتب الأستاذ حسين بيكار تحت زاويته الأسبوعية « ألوان وظلال » مقالا بعنوان : « تصوير إسلامى » ولقد استوقفنى العنوان لقراءة الزاوية رغم أننى أتجنب قراءتها عادة . وحاولت بعد قراءتها أن أنساها وأسقطها من حسابى كما أفعل مع الكثير مما أقرؤه فى الصحف القومية وأجده جهلا بالإسلام وتعدياً عليه وذلك فى إطار الهجمة التى لبس فيها كل من هب ودب لباس العارف بالإسلام وصار يقرر – من ضمن مايقرر – أن المسلم العادى المعتدل هو الذى يلبس الملابس العادية المعتدلة ، وأن المتطرف الذى يلبس الملابس المتزمتة أما الإرهابى فهو الذى يلبس الملابس الشاذة .

وعرفنا طبعاً أن المقصود بالملابس العادية المعتدلة للمرأة هى السفور وللرجل هى القميص والبنطلون أما الملابس المتزمتة والشاذة فهى : الحجاب والخمار والنقاب والجلابية واللحية المرسلة . وطظ طبعاً فى التساؤل الذى قد يطرأ على ذهن أى ابن بلد طيب حين يفكر : عادى بالنسبة لمن ؟ ومتزمت وشاذ بالنسبة

لمن ؟ خاصة وأننا فى بلد ضمن مساحة ضخمة من البلاد العربية والإسلامية التى لاتزال فيه الطرحة والثياب السوداء الطويلة للمرأة والجلابية والطاقية والعمامة للرجل لاتزال هى الغالبة وهى السائدة وهى العادية ولايزال السفور والبنطلون والقميص والبذلة الإفرنجية هو الشاذ والطارىء . وفى كل مرة كان هؤلاء العارفون بالإسلام أو على الأصح « العازفون » بالإسلام – يختتمون مقالاتهم بهذا التساؤل الغاضب والرد الرنان : « هل هذا هو الإسلام ؟ هل هذا هو الإسلام ؟ الاسلام من هذا براء ! » وعلى أيدى هؤلاء من العازفين بالإسلام تعلمنا أن الإسلام مع كونه براء من الحجاب والنقاب والجلابية واللحية ، فهو براء كذلك من الاعتكاف فى المساجد فى رمضان ومن ضرورة الصلاة فى المسجد جماعة وبراء على وجه الخصوص من التحلق مجموعة داخل المسجد لمدارسة القرآن الكريم ... حتى بت أتوقع أن يخرج علينا من يؤكد لنا أن الإسلام براء من الصلاة والصيام والزكاة ومن تحريم الخمر والخنزير وبراء من ضرورة إعلان الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ! خاصة بعد أن حذفت إذاعة القرآن الكريم فعلاً دعاءها المعتاد الذى كان يردده المذيع بعد كل أذان للصلاة : « رضيت بالله رباً وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا وبالقرآن الكريم شريعة ومنهاجاً ! » وحين أعادته على استحياء بعد فترة كانت قد بترت منه : « وبالقرآن الكريم شريعة ومنهاجاً ! »

●

ورغم أن هذه الهجمة بدأت تهدأ قليلا بعد إجراءات الإفراج عن أصحاب اللحى والجلابيب وبعد أن لمح العازفون بالإسلام أن الحكومة لم ترغب منهم كل هذا الانفعال ، إلا أن بقايا من المستفيدين من هذه الهجمة لغرض فى النفس مايزالون وراء استمرارها بالنفخ الهادىء الرزين والحقن الخفى الرصين !

من بين هؤلاء الأستاذ حسين بيكار ومقاله « تصوير إسلامى » الذى لم أستطع أن أنساه فى أوجاع يومى أو أسقطه من حسابى كما أسقطت كل حقوقى . السبب هو الجرأة الغريبة التى سمح الأستاذ بيكار لنفسه أن يطعن بها فقهاء المسلمين ويلمز بها قوانين إسلامية محسومة ناعتا الفقهاء بالتزمت لامزاً القوانين الإسلامية بـ « فكر رجعى لامكان له فى مرحلة النضج البشرى .. » وذلك حين يندهش : « ... أن نرى بعض الفنانين المتزمتين يرددون الزعم بأن الإسلام يحرم التصوير وسائر الفنون الرفيعة من موسيقى **ورقص** ، ولاشك أن هذا فكر رجعى لامكان له فى مرحلة النضج البشرى ..» ورغم أن هذا المقتطف – بل المقال كله – يفتح مناقشة من السهل للمنطق الإسلامى فيها أن يصرع المنطق البيكارى ويؤكد أن هؤلاء الفنانين غير متزمتين وأنهم لايرددون « زعماً » بل يستندون إلى آراء فقهية قوية تؤكد تحريم نحت التماثيل وتحرم الرقص على سبيل القطع ، إلا أننى لا أدخل فى مناقشة مع الأستاذ بيكار فأنا لا أحبذ الدخول فى نقاش إسلامى حول المحللات والمحرمات مع من لايدين بدين الإسلام : فلهم دينهم ولى دين .

●

ولكى نكون على بينة من أمرنا أقرر أنه من حق الأستاذ حسين بيكار أن يكون له رأى مختلف عن الرأى الإسلامى حيث أنه يتبع مذهب الطائفة البهائية ويعتنق مبادئهم ولا يدين بدين الإسلام :

وإنما :

ماليس من حقه – وهو ماأحتج عليه – أن يزج بنفسه للفتوى للمسلمين وتقريره ماهو حلال لهم فى الإسلام وحرام وهو لايعتمد عقيدتهم أصلا بل ويرى – وفق مذهبه – ضرورة إلغائها وإحلال بهائيته بديلاً عنها – والعياذ بالله .

فالمعروف أن البهائية منذ نشأتها ، كحركة يدعمها الاستعمار الإنجليزى فى إيران عام ١٨٤٤ ، كان هدفها الأول نسخ الشريعة الإسلامية – والعياذ بالله – وإحلال العقيدة البهائية مكانها وعلى أرضها .

والمعروف كذلك أن للبهائيين تفسيرات خاصة – مرفوضة من الإسلام – لسُور وآيات القرآن الكريم وأهم تفسير يطرحه البهائيون هو : تفسيرهم لمعنى الآية الكريمة رقم ٤٠ من سورة الأحزاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . ﴾ صدق الله العظيم

يفسر البهائيون « خاتم النبيين » بمعنى أنه زينة النبيين أى أن « خاتم » لاتعنى خاتمة ونهاية وآخر الأنبياء كما هو المعنى عند المسلمين بل هى تعنى عند البهائيين الخاتم الذى يلبس فى اليد !

ومن هذا التفسير المنحرف المراوغ يصلون إلى إمكانية ظهور أنبياء ورسل بعد الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه . وعلى ذلك زعموا بظهور « بهاء الله » وكونه نبياً ورسولاً وإلها فى ذات الوقت ! وقدم لهم بهاء الله هذا كتابهم المقدس الذى يسمى « البيان » وفيه محللات لكل محرمات الإسلام وأهم مبادئه :

١ – فصل الدين عن الدولة .

٢ – إلغاء الجهاد وتحريم الثورة على الحاكم حتى ولو كان ظالماً أو استعماراً أجنبياً حيث تقول تعاليمهم : « ...وتكونوا خاشعين للسُدَّة الملكية لكل ملك ، وأن تخدموا الملوك بنهاية الصداقة والأمانة ، وتكونوا مطيعين لهم

ومحبين لخيرهم ، وألا تتدخلوا فى الأمور السياسية من غير إرادتهم وإجازتهم . »

٣ – إباحة الربا .

٤ –إباحة الخمر والخنزير وإلغاء أصول الذبح الإسلامى .

٥ – تحريم الحجاب والدعوة إلى السفور مع إطلاق العلاقات الحرة بين الجنسين .

٦ – الانسلاخ من التراث الإسلامى واللحاق بركب التبعية الأوروبية .

٧ – إنكار القيامة والبعث بعد الموت .

●

وإذا كانت الدعوة البهائية قد قوبلت بالعنف عند نشأتها فى إيران فأصدر الملك ناصر الدين شاه قراراً عام ١٨٤٨ بإعدام قاداتها ودعاتها بعد أن أفتى علماء الدين فى إيران والعراق – بإجماع السنة والشيعة – بكفرهم وارتدادهم عن الإسلام وهاج عليهم الشعب الإيرانى المسلم يطاردهم كالوباء ويرجمهم ، إلا أن البعض منهم تمكن من الهرب من إيران بواسطة الإنجليز الذين كانوا دعمهم وحمايتهم . وانتشروا بعد ذلك على مدى القرن التاسع عشر إلى الآن يحتلون فى خارطة العالم مع أشقائهم من الماسونيين والصهيونيين أهم مفاتيح المنظمات الدولية : النسائية والنفسية والاجتماعية والثقافية والفنية والأدبية ويواصلون من خلالها – وفق تكتيكهم الهادىء الناعم المتسرب كغاز الاختناق – يواصلو ن دأبهم لتحليل محرمات الإسلام وبث الزعم بأن الإسلام بقوانينه الأصيلة لم يعد صالحاً للقرن العشرين أو كما قال الأستاذ بيكار : « ... فكر رجعى لامكان له فى مرحلة النضج البشرى . » !

« النضج البشرى.» وياله من نضج !

ولقد تم التسرب البهائى للمواقع الهامة فى مصر بهدوء وعادية خاصة بعد أن أصبحت المبادىء البهائية ومحللاتها هى النمط السائد على سطح المجتمع : فبمراجعة مبادئهم السبعة ، التى ذكرتها أعلى هذا الكلام ، نجد أن معظمها – إن لم يكن كلها – قد ساد سطح المجتمع وتحقق فيه ولذلك لم يكن غريبا أن كان المتحدث الرسمى بإسم مصر فى يوم من الأيام القريبة : بهائياً ولم يكن غريباً أن تكون إحدى نائبات مجلس الشعب النشطات إعلامياً : بهائية – (وهى بالطبع من معارضات الحجاب) – ولم يكن مرفوضاً أن يكرم الأستاذ حسين بيكار ويحصل على أعلى وسام للفنون من الدولة المسلمة التى أفسحت صدرها له لكنه لم يشأ أن يفسح صدره لشريعتها وعندما واتته الفرصة بدأ بالنقر والوخز .

والذى أحب أن أؤكده للجميع – الذين يكتبون فى محللات الإسلام ومحرماته – أننا كشعب مسلم – يؤمن بأن محمداً ﷺ خاتم أى نهاية الأنبياء والمرسلين – عندما نريد أن نتعلم ديننا ونعرف فتاوى الحلال والحرام فلن نسعى إلا لفقهائنا القدامى والجدد ولن نسأل سوى « أهل الذكر » ، الذى ليس من بينهم بالتأكيد حسين بيكار ومن هم على شاكلته .

١٩٨٢/٢/٢٧

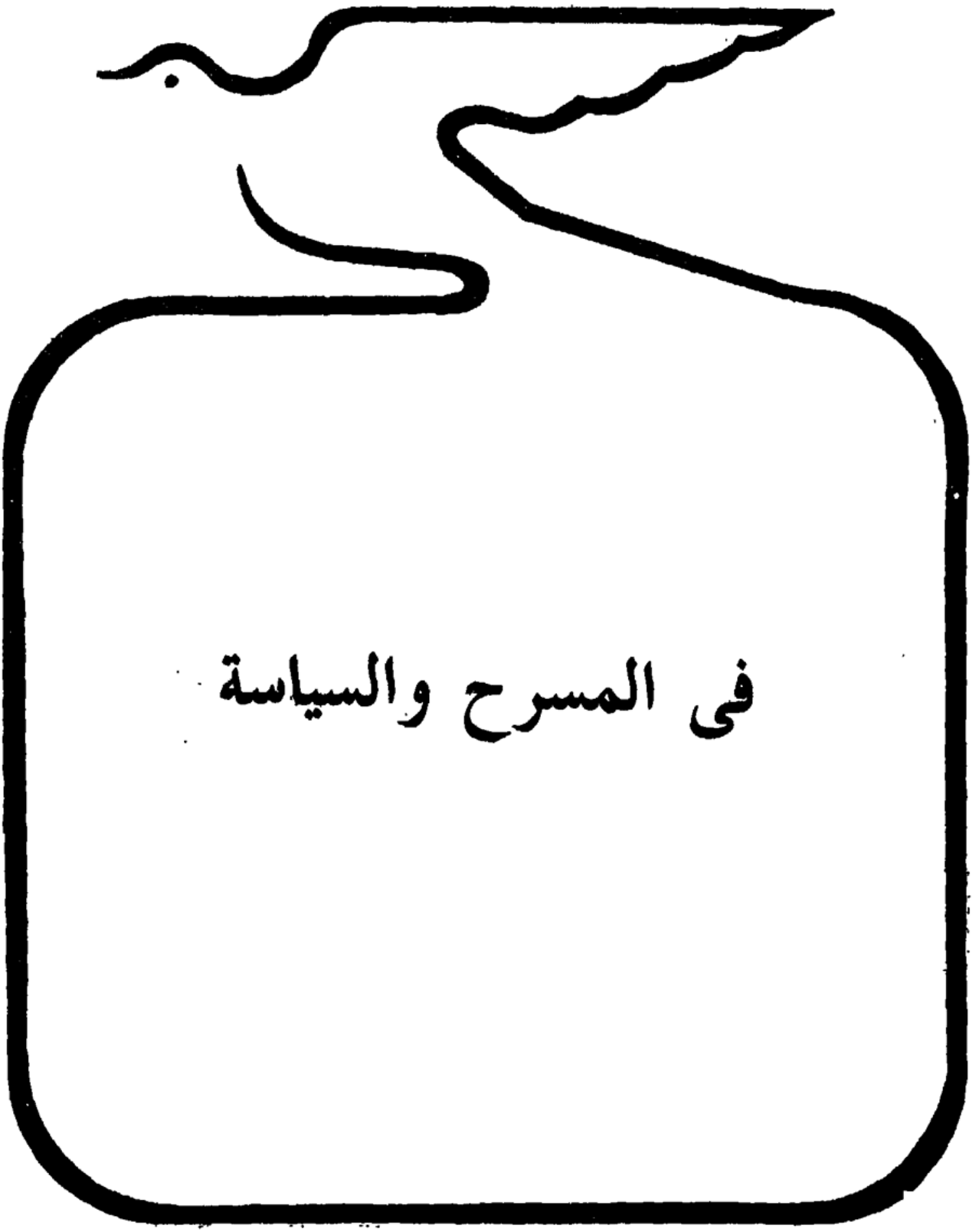
فى المسرح والسياسة

« مسرح سياسى » يعنى ضمناً أن هناك مسرح غير سياسى . يعنى ضمناً أن هناك – من الممكن مسرحاً لا يلتزم بموقف ولا ينطلق من وجهة نظر أى : مسرح يجلس إليه جمهور تشتعل بطرف ثوبه النار فيهز كتفه ويقول : ليس لى دعوى ! أنا لست ممّن يخوضون فى الأمور : سأروى قصة واحدة ونصف !

هل يمكن أن يكون هذا مسرحاً ؟

لايمكن !

هذا الشىء الذى لايبالى بالخطر الداهم والنار المشتعلة فى طرف الثوب قد تنتشر لتأكل الثوب والجسد : هذا الشىء لايكون سوى : مبغى .

قد يرى البعض أن المباغى ضرورة : لكن المباغى ليست مسرحاً .

حين نقول أن الثقافة ، الفن ، الأدب ، المسرح ، الخ . شىء غير « السياسة » فهذا لايعنى أنها أشياء صماء ، بكماء ، عمياء ، بل تعنى ، أنها أرقى من « السياسة » وأشمل من « السياسة » لأنها : متقدمة فى الرؤية : ترى الأزمات المستقبلية وتحذر ، كزرقاء اليمامة ، من مغبتها قبل « المداهمة » التى تصبح شغل « السياسة » فيما بعد . كما أنها أعمق فى استيعاب الأزمات الراهنة وأبعد إدراكا فى تحليل مسبباتها ورصد شواهدها .

من المسرح الإغريقى إلى مسرح شكسبير حتى مسرح بيتر بروك ومابعده ، وقضايا العدل والغدر والمقاومة وأحداث العصر ومصائر الناس ... الخ هى : محاور العمل التى يتناولها كل زمان من زاويته بلغته التى تؤثر فى الناس فيتجاوبون معها ويتعلقون بأطواق نجاتها .

ولانكاد نرى فى تراثنا العربى والإسلامى ، البعيد والمتوسط والقريب ، شعراً أو أدباً أو عملاً ذا قيمة لم تكن هموم الأمة وأزمات الوقت هى مشغوليته وحافز وجوده إبتداءً .

●

ليس هناك شيء اسمه « سياسة » بمعنى أنها شيء خارج مسيرة الحياة اليومية الملامسة لحياة سواد الناس ، حين يبدو « السياسى » وكأنه يلبس شيئاً طارئاً ، مثل « النوبة » ، أو النزوة أو الهواية أو المرض ، مايلبث أن يتركه أو يعتزله أو يشفى منه . وحيث يكون تعبير « مهتم بالسياسة » يبدو أحياناً كتهمة وأحيانا كامتياز وتميز فئة على الغالبية التى يكون من الممكن لها أن تستمر فى طريقها خالية القلب ، مشغوله بشأنها الخاص .

●

مايحدث حولنا ، فى لبنان مثلا الذى صار مسرحاً حياً أكثر قسوة من مسرح القسوة كما عرّفه « أنتونين أرتود » ، يفرض على إنسان سواد الناس القلق على وجوده اليومى الروتينى الذى يعرف أنه مهدد بفقده فى أى لحظة ، حتى وجود الكرنب والطماطم وهو لذلك مرغم أن يهتم وأن يتابع وأن يعرف ماالذى يحدث حوله ولماذا يحدث . إنه يدرك أن مايحدث فى لبنان ، رغم قسوته وعنفه ، يعلمه أشياء هامة عن واقعه وعن نفسه وهو يدرك أنه إذا تغافل ولم يلتقط رسالة الدرس اللبنانى الوامض ، فمعنى ذلك أنه سيكون عاجزا عن التقاط طوق نجاته

ولن يجدى معه أى شيء آخر مهما كان . الحقيقة التى تعلنها لبنان أنهم ، « سواد الناس » ، الذين تنزف دماؤهم مباشرة ، وهم الذين يذبحون ويشردون ويطردون من بيوتهم ويتلقون الخسارة ، بكل أنواعها ملتهبة بين أيديهم . ومع هذا التماس الحاد بين « معرفة » هى : « الحياة أو الموت » لايصبح لبنان «سياسة » بالمفهوم الخاطىء الشائع ، ولاتصبح متابعة مايجرى هناك ومعرفة أسبابه بمثابة تحويل « سواد الناس » من مواطنين عاديين إلى « سياسيين » .

فهذه المتابعة أو « الوعى بما يحدث » هى « باب » حماية الزوجات والأطفال من الموت أو التشرد خارج الديار حماية للحياة اليومية بتفاهاتها المرحة ولذائذها ومآسيها الصغيرة . وهنا يصبح الفنان : المسرحى ، أو الأديب ، أو الكاتب مجبر – فلا خيار أمامه – على مساعدة هذا « المواطن » على الفهم وعلى النجاة . تماماً كجندى الإنقاذ المدنى الذى يأخذ بأيدى الضحايا للخروج أحياء من بين الأنقاض والخرائب . على ذلك فلا بد أن يختفى مفهوم « سياسى » بمعنام الخاطىء أنه « محترف » ، لابس شعر مستعار ، يمكنه الاستقالة أو التقاعد أو « التوبة » !

أمام الوعى بمخاطر المرحلة لايوجد مهرب أمام الفنان ، المسرحي والأديب والكاتب ، فليس أمامه سوى مواجهة البراكين والزلازل التى تسقط الحمم وتهدد أبناء أمته . ولذلك كان الفن دائما وسيلة خلاص وتحرير .

عاش المسرح الإغريقى ، كما عاش مسرح شكسبير ، فترة ميتاً حين عامله بعض المخرجين فى عصور تالية له ، بصفته تراثاً مقدساً يجب أن يقدم كما هو ، حتى خرج من بين أيديهم فاتراً مسطحاً لايحمل للمشاهدين سوى الملل

والخرافات . لذا كان ضرورياً أن يصحح المخرج المعاصر تناوله لهذا التراث من خلال اكتشافه ، أولاً ، جوهر غايته الأصلية حين كان يقدم لجمهوره الأول . وحين تمت صياغة هذا « المعنى الجوهرى » إلى معادلاتها فى لغة العصر الحديث ، عادت الروح إلى الأصل الميت وأنبت ورقه الأخضر الذى استطاع أن يجد فيه جمهور أوروبا – بعد الحرب العالمية الثانية – مذاقاً وغذاء . وأصبح من الممكن لمسرحية مثل « حاملات القرابين » – التى كتبها أسخيلوس منذ ٢٥٠٠ سنة – أن تحمل لجمهور النصف الثانى من القرن العشرين كلمات تمس وجعهم الحى وتبسط الحقيقة المرّة أمام الدول المنتصرة التى لخصتها صرخة أورست :

« ياويلتى ماأفدح انتصارى ! »

●

إن الناقد الذى يتعامل مع « الفن » و « الثقافة » عليه أن يعرف أنه باختياره ، هذا الطريق ، يكون قد حمل أمانة أثقل وطأة من « المحلل السياسى » – أو مااصطلح عليه باسم كاتب الافتتاحية السياسية – لأن مهمته الدائمة هى رصد الأحداث وتقييمها بمعيار الخسائر أو المكاسب الإنسانية بعيداً عن موازين القوى ومصالح الدول الكبرى .

فى المسرح والبذاءة

نشأ « المسرح » مع الشعر فى أحضان الخمر والوثنية . وفى كل بقعة من الأرض نبت فيها الشعر نبت معه المسرح تلقائيا . عرفت الحضارات القديمة كلها « الشعر » وكان الشاعر فى كل الأحوال هو المغنى والمنشد الراوى للأخبار والأمجاد والمرتل للصلوات والمهيج للثارات . ومع « الشعر » وطقوس المعبد المصرى القديم نشأ المسرح الذى أخذ اليونان بذوره من مصر وزرعوها فى معابدهم وسقوها خمر احتفالاتهم الوثنية فى مهرجانات « ديونيشس – باكوس – « الوثن المسئول فى اعتقاداتهم عن محصول العنب وموسم عصره خمرا ومن هذه المهرجانات الغارقة فى طقوس السكارى والأوثان استمد المسرح الأوروبى جذوره وقواعده . وحاولت المسيحية الأوربية فى بدايتها وعصور قوتها أن تملى على المسرح مضامينها وقيمها « تطهيرا » للمسرح من قيمه الوثنية القديمة وتقاليدها التى كانت تبدو انحلالا من المنظور المسيحى .

وعرف تاريخ المسرح الأوروبى عصورا اضطرت الكنيسة فيها إلى إغلاق المسارح التى لاتلتزم بخطها وتعكس فضائلها . وكان من نتاج هذا الصراع المرير الطويل أن تحدد بالنهاية نوعين من المسرح :

- مسرح ملتزم بعقيدة مبدئية يطرحها ويدافع عنها ويهدف بذلك إلى إرساء قيم وأخلاقيات ومفاهيم يرى أصحابها أنها بناءة للمجتمع وخير للشعب .

- ومسرح لايجد فى رسالته غير الامتاع والتسلية عن طريق استمالة وجذب شهوات المتفرجين بالبذاءة فى اللفظ والحركة .

واستطاع النوع الأول – وهو المسرح الملتزم – أن يجد قدوته فى التراجيديات اليونانية – التى خرجت من مهرجانات الخمر – واستطاع أن يبلور منها – بنظرة نقدية حديثة – قيما إيجابية تتراسل مع قيمه الإيجابية المسيحية والمعاصرة . بينما انغمس النوع الثانى – الباحث عن المتعة فى البذاءة – فى « المسخرة » واجداً قدوته فى الهزليات والألعاب الماجنة التى كانت تقدم فى الاستراحة بين عروض التراجيديات .

وفى المرحلة التى بدأت فيها حملة التغريب – أى محاكاة الغرب – فى بلادنا : حمل رواد التغريب – مع حقائبهم القادمة من أوروبا : « المسرح » . وعرفنا « المسرح » على النسق الأوروبى بنوعيه :

* الملتزم بقيم وأخلاقيات المجتمع الأوروبى وتراثه العقائدى .
* والماجن العابث الساعى بالبذاءة مضمونا وإيماءة ولفظا نحو متعة خشنة تجتذب الأفظاظ .

لكن « المسرح » الوافد ظل – بنوعيه – بعيدا عن مزاج شعبنا لأسباب عديدة أهمها – فى حالة المسرح الملتزم – أنه كان غريبا عن ثقافة البلاد متكلفا فى الأداء والصنعة ، أما النوع الثانى فكان قرينا للحرام والفساد لايرتاده إلا قلة تزدريها أخلاقيات غالبية الشعب بعقيدته الإسلامية .

وكان بإمكان الشعب – فى البداية – أن يتجنب « المسرح » بشكليه اللذين تم تصنيفهما إلى : « محترم » و « مسخرة » ، وقنع بفنونه الشعبية المتوارثة كالسامر والأراجوز وشاعر الربابة ورواياته الممتعة التقليديه عن سيرة أبى زيد الهلالى وسيف بن ذى يزن ... الخ .

وكان هذا الاختيار الشعبى فى واقعه انحيازا أصيلا إلى شكل مسرحى نابع من ثقافة الأمة وتراثها الإسلامى : متطورا من ميلاده القديم مع ميلاد الشعر العربى فى حقبة الجاهلية قبل الإسلام .

ولو أن رواد التغريب لم يواصلوا هجمتهم المدمرة على المحاولات المستبسلة التى كانت تريد نهضة الأمة وانبعاثها من أصولها وعقيدتها ، لكان من المحتم لمسرح إسلامى أن ينبثق ويزدهر كما انبعثت وازدهرت من قبل أشكال المعرفة والآداب والفنون الإسلامية العديدة والمختلفة ، فحين بزغ الإسلام فى الجزيرة العربية ، والشعر أقوى دعائمها فنا وثقافة ، لم يحرم الإسلام

« الشعر » لكنه رفض محتواه الجاهلى واحتفظ بالشكل وسيلة من وسائل التعبير الفنى فكان المجال مفتوحا أمام إبداع الشاعر العربى المسلم لكى يطرح الرؤية الإسلامية بديلا عن الرؤية الجاهلية مع احترامه ووعيه بأصول وقواعد صنعة الشعر الجيد التى ورثها عن أجداده فى الجاهلية .

جدد الشاعر المسلم وطور فى الشعر العربى ماحتمته وأوجبته رؤيته الإسلامية ونظرتها التقدمية للإنسان والحياة وكانت ثمة عناصر لمسرح عربى خاص متواجدة فى إطار حلقة إنشاد الشاعر الجاهلى واستمرت هذه العناصر متواجدة ومستمرة كذلك فى إطار الخطابة والمناظرة وحلقات الإنشاد الشعرى فى قصور الخلفاء وساحات العامة وهى العناصر التى مدت أفرعها عبر القرون لتبقى فى « الحكواتى » و « شاعر الربابة » وماشابه ذلك .

وقد كان من الممكن – حتى بعد هجمة التغريب – أن نتعامل مع إطار المسرح اليونانى – الذى أتى إلينا عبر أوروبا – كما تعامل الإسلام مع الشعر الجاهلى : أن نتعلم أصول وقواعد صنعة المسرح – كشكل من أشكال التعبير الفنى – ثم نغير ونطور فيها وفقا لما توجبه وتحتمه علينا رؤيتنا الإسلامية بقوانينها ومنطلقاتها وتصوراتها الملتزمة بقيم وأخلاقيات وحدود وأهداف يتآلف معها شعبنا ويفهمها ويتراسل معها فينهض لها وبها . وكان لابد – لو تم ذلك – أن يتولد نتيجة لهذا : مسرح إسلامى شكلا ومضمونا يقدم بإبداعه إضافة متميزة للمسرح العالمى كتلك التى أضافها المسرح الاشتراكى والصينى واليابانى والافريقى والهندى : مسرح إسلامى فى مضمونه وتشكيله وأدائه وقانونه المتحكم فى تكوين الممثل والممثلة وعين المخرج ، لامسرح يكتفى من إسلامه بمجرد صرخاته « وإسلاماه » أو « ياقوم » !

إلا أن هذا الذى كان « من الممكن أن يكون » لم يحدث . بل جاءت هجمة السينما ثم هجمة التلفزيون لترسخ كل منهما كل سلبيات هجمة التغريب – الذى قدم لنا أسوأ مافى قيم الغرب وأردأ أنواع فنونه – التى أجهزت على محاولات الأمة فى النهوض منبعثة من عقيدتها الإسلامية وثقافتها القومية نتاج هذه العقيدة .

وبينما كان من الممكن للشعب – فى البدايه – أن يتلافى بسهولة المسرح الوافد بنوعيه « المحترم » و « المسخرة » ، أصبح الموقف أصعب بعد انتشار السينما ببهرجها وألاعيبها فى معظم أحياء العاصمة ومدن الأقاليم . وتشكلت المأساة الثقافية ضد الشعب حين مالت السينما وغرقت فى اختيارها أسلوب مسرح « المسخرة » الذى يعتمد على البذاءة فى التصور وفى الحركة واللفظ بهدف الإمتاع المدغدغ للشهوات والتسلية الغليظة . وتم تطعيم القصص – المقتبسة من سينما البذاءة الأوربية والأمريكية – ببذاءة محلية ترتكز على الرقص البلدى المقدم فى مقاهى السكارى والحشاشين وبؤر العصابات . فتم نقل هذه الصور المعزولة – عن غالبية الشعب الذى يزدريها بقيمه وعقيدته – إلى ساحات الانتشار والتحبيذ حتى تبددت صدمتها وألفتها عيون الناس الطيبة فتجاوزت فى تسامحها بوجودها إلى محاكاتها والاقتداء بها وتبنى لغتها ونكاتها وألفاظها ! وبلغت المأساة ذروتها بمقدم التلفزيون الذى أخذ مكانه الوثيق فى كل بيت حتى القرى والنجوع – ليس من أجل محو للأمية أو ترسيخ لعقيدة الأمة وهويتها ولغتها العربية الراقية السليمة ولكن – من أجل أن تعمم البذاءة وتهدر الهيبة وتتعود اللفظة الخشنة والمزاح الثقيل والتصور المريض المزيف لقضية تحرير المرأة ومشكلة العانس والمطلقة ومأساة الراقصة التى يبتزها بلطجى إلى آخر أشكال الكوابيس الشاذة وأنواع المعلومات الفظة عن أنماط من البشر يفضل الإنسان أن يواصل حياته جاهلا بها .

وهكذا شيئا فشيئا : أحاطتنا البذاءة من كل جهة : نتنفسها شهيقا وزفيرا حتى بات التهذيب تزمتا والدماثة انغلاقا وموطنا للاتهام . فهل يجوز لنا – والصورة هكذا – أن ننتزع فجأة ممثلا واحدا اسمه « سعيد صالح » لنجعله كبش الفداء ولنمسح فى ردائه أوزار مشوار طويل – فى صناعة وتعميم وتحبيذ البذاءة – ساهمنا فيه جميعا على مدى سنوات وسنوات !

●

ايها الناس :

من كان منكم بلا بذاءة فليرم « سعيد صالح » بحجر !

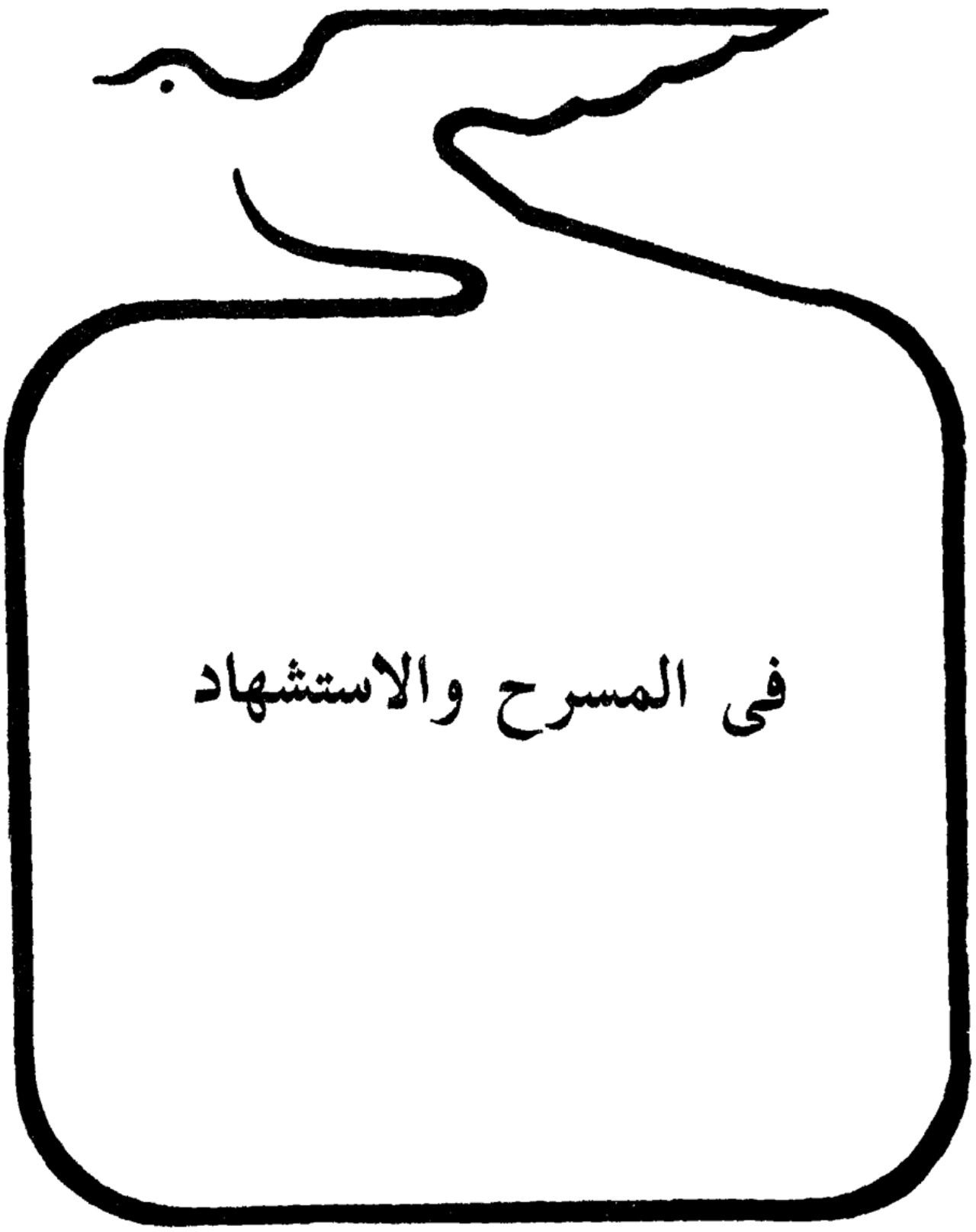
فى المسرح والاستشهاد

فى المشهد الأخير من « هاملت » يضع شكسبير القتلى كلهم موتى على الأرض : فهذا جسد الملكة التى سقطت فى فخ الهوى الدنىء ، وهذا جسد « لايرتيس » : الذى وقع فى فخ الغدر غير الشريف ، ثم هذا جسد رأس الفساد – (الذى قتله هاملت) – الملك « كلوديوس » الذى تجمعت فيه كل الصفات التى تشمئز منها الإنسانية وتخجل منها كرامة أعظم مخلوقات الله وهو الإنسان . ومن قبل كنا قد رأينا مصرع « بولونيوس » جاسوس الملك وقد دفع ثمن تجسسه موتته البشعة وهو متلبس بالفعل الذميم يتلصص السمع خلف الستار فى غرفة الملكة ، ثم علمنا مصرع « روزنكرانتس وجولدنستيرن » بوقوعهما فى الفخ الذى كان منصوباً لاغتيال « هاملت » . ولايجعلنا شكسبير نرثى لواحد من هؤلاء القتلى الستة فقد قدمهم فى مواقع تجعل المشاهد يتنفس الصعداء إحساساً بالتطهر كلما سقط واحد منهم هالكاً ، اللهم إلا « لايرتيس » – الفارس الذى خان شرف سيفه بغمسه فى السم – وذلك عندما يعترف بإثمه ويتوب ويطلب المغفرة من « هاملت » لحظات قبل أن يلفظ أنفاسه .

أمام كل هؤلاء الهالكين يُقدّم شكسبير « هاملت » : شهيداً مرتفعاً فوق الأعناق ، متواصلاً فى الحياة من خلال صديقه الأمين « هوراشيو » الذى عليه – كما أوصاه هاملت بإعتباره المثقف الواعى النظيف – أن يستمر فى الدنيا – رغم صعوبة ذلك – ليحكى بأمانة قصة « هاملت » الذى حمل مسئولية الحق مجاهداً فى مواجهة الباطل والفساد .

فعندما يتصدع قلب « هاملت » وتتوقف نبضاته بفعل الجرح الغادر المسموم الذى أصابه فى المعركة ، لايجعله شكسبير يسقط ميتاً بل : يرتفع شهيداً : قمراً فارساً وأميرا حلواً – كما يصفه هوراشيو – وملائكة محوّمة تُغنى له حتى مرقده !

يبلور شكسبير بهذا المشهد الختامى الرؤية المسيحية النقية التى تتطابق مع الرؤية الإسلامية فى أن الموت ليس نهاية القتيل دائما فهناك : « الاستشهاد » الذى يبقى معه القتيل حياً مرزوقا عند الله سبحانه وتعالى لأنه سوف يأتى يوم البعث والحساب « شاهداً » على من أفسدوا فى الأرض .

ومن هنا ترتبط كلمة « الشهيد » أولاً : بالإيمان المطلق بوجود الله سبحانه وتعالى واليقين القاطع بيوم البعث والحساب فى الحياة الآخرة ، ثم إنها مرتبطة ثانيا : بسعيٍ نحو نصرة الحق على الباطل فى سبيل الله .

فكلمة « شهيد » ليست مجرد « لقب » يلصق جُزافاً بأى إنسان حدث أنه قُتل بشكل أو آخر وهذا مايوضحه شكسبير بجلاء فى مسرحيته ، فلكى تستحق شخصية « هاملت » أن تُقدّم بالنهاية بصفتها « شهيداً » مرفوعاً على الأعناق كان لابد أن يتم إعدادها لهذا منذ اللحظة الأولى للمسرحية .

حين نلتقى بهاملت أوّل مرّة يكون ذلك عند المشهد الثانى فى الفصل الأول للمسرحية عندما نراه منزوياً بعيداً عن الجمع : وحيداً حزيناً صامتاً يرتدى السّواد وذلك فى اجتماع – أشبه بالمؤتمر الصحفى – عقده الملك الجديد « كلوديوس » ليلقى فيه خطابه المزوّق المعسول المسهب والملىء بالكلمات الطنّانة يبّرر من خلاله زواجه المحّرم من أرملة أخيه – (أم هاملت) – قبل مرور فترة الحداد على زوجها الملك الراحل – (أبو هاملت) – بل بعد أيام من موته المفاجىء الغامض ، بينما الحاشية – من رجال البلاط ومسئولى الدولة – ترهف السمع وتتحسس بأنفها المدرّب – بين طيّات الكلمات والنظرات والإيماءات – السياسة الجديدة للملك الجديد لتسير مع تيار مايرضيه وتبتعد عن رياح مايغضبه !

●

وتلتقط الحاشية على الفور الاتجاه ضد « هاملت » ، فعلى الرغم من الكلمات المعسولة التى أغدقها الملك على ابن أخيه « هاملت » إلا أن منعه من السفر لإكمال دراسته خارج البلاد وانتقاده لإصراره على الحزن على وفاة أبيه وعلى ارتدائه السواد ونعته هذا السلوك بأنه ضعف فى الإيمان بالله وغير رجولى : كل هذا مؤشرات واضحة بأن الملك – على الأقل – لايرتاح لهاملت : وفى هذا الكفاية ليبدأ الجميع فى إدارة ظهورهم له وليخرج « بولونيوس » – مستشار الملك وأقرب أعوانه وهو السياسى القذر والداهية العجوز – وفى نيته القرار بقطع علاقة الحب الطاهر الرقيق الذى نشأ بين ابنته « أوفيليا » وبين « هاملت » – وكان قد سكت عنها إبان حكم الملك الراحل حين كان « هاملت » فائزا بالرضاء الكامل من السلطة ! – نفس النيّة تكون قد دفعت ابنة « لايرتيس » – الذى حاز على موافقة الملك مع التدليل الكامل بالسفر إلى فرنسا لإكمال دراسته – إلى الإسراع بإسداء النصح لأخته

« أوفيليا » بقطع علاقتها فوراً بهاملت متستراً بحجة الخوف على سمعتها وشرفها !

مع هذا الطقس البارد المتهيىء بالغيوم ضد « هاملت » ينفض الجميع ليقف « هاملت » وحده مخاطباً نفسه مُفضيا لأول مرّة باحزانه معبراً عن خذلانه يائسا حتى تمنى الموت :

« آه : لو أن هذا الجسد الصلب يذوب ،
ويتحلل إلى قطرات من ندى .
آه : لو أن الله الباقى
لم يوجه عقوباته ضد قتل الذات ...»

ونفهم من حديث « هاملت » الأسباب الموضوعية التى تجعله يرفض « كلوديوس » . فكلوديوس له تاريخه المعروف فى الفساد ورصيده فى خراب الذمّة وعبوديته لشهوة المال والجنس والخمر ، إضافة إلى انتهاكه عُرف الكنيسة والناس بزواجه من أرملة أخيه ، ثم كونه قد اغتصب العرش من وريثه الشرعى الأمير « هاملت » .

هذه كلها كانت – من البداية – أسباباً يضعها « هاملت » فى مقدمة رفضه لعمه الحاكم : لكن كل هذه الأسباب – رغم قوتها – تتلاشى حين يعلم أن « كلوديوس » الفاسد بلغ به الفساد حد قتل أخيه – الملك والد هاملت – تحقيقاً لنزواته وشهواته فى تملك العرش والملكة .

ويصبح مطلوباً من « هاملت » الثأر لمقتل والده . ويقسم « هاملت » على محو كل شيء من عقله وصدره حتى لايبقى لديه إلا مواجهة الملك القاتل الفاسد والثأر منه .

غير أن « هاملت » – بواقع تكوينه ونضجه الفكرى والأخلاقى – يجادل نفسه ويحاورها ليخرج بقرار يصوّب فيه منطلق المواجهة لكى لاتكون من أجل الثأر الذاتى وحده ولكى لاتكون ضد كلوديوس بصفته الفردية الشخصية فقط بل : لتصبح مواجهة شجاعة تنبع من ضرورة أخلاقية يمليها عليه ضميره الدينى إزاء الفساد والباطل ورموزه أينما كان وكيفما تمثل ويجد أن القسوة فى مواجهة الباطل والشر هى الرحمة فى الواقع ، إذ إنها : انتصار لقوى الخير فى الإنسان وخلاص للأمّة قربة لوجه الله سبحانه وتعالى ويعلنها هاملت :

« علىّ أن أقسو لكى أكون رحيماً ! »

ويعيد « هاملت » ترتيب أوراقه كلها على ضوء إمكانياته المادية الضعيفة أمام جبروت الفساد وقوّته واستشرائه فيدخل المعركة الشرسة بأسلحة : الذكاء والفطنة مُدعماً بحب الناس ، شاحذا – قبل كل شىء – قوّة الرغبة الجياشة للاستشهاد فى سبيل الحق . وأمام استعداد نبيل وفتاك كهذا لايكون أمام « كلوديوس » سوى الهزيمة النكراء والنهاية المخزية فى الدنيا والآخرة ، رغم ركوبه أعلى خيله ورغم مابذله من مال وعناء للدفاع عن شرّه وإعلاء باطله ليدحض به الحق .

ومن المشهد الأول فى المسرحية حتى المشهد الأخير فيها لايغيب عنا « هوراشيو » صديق « هاملت » الحميم ومستودع أسراره وخواطره : يُقدمه شكسبير شخصية من الشعب ، لايملك بنساً واحداً لكنه يملك الحكمة والعقل الموضوعى والعدل ، مثقفا عليماً بالتاريخ ومثله ، مراقباً دقيقاً وشاهداً شريفاً متابعاً لأحوال بلاده . ولأجل كل هذا النبل والصدق مع الوعى والعلم المتجمع فى شخصية « هوراشيو » يختاره « هاملت » ليكون هو الراوى لقصته والمدافع

عن قضيته حتى لاتُترك الفرصة لأعوان « كلوديوس » لتزييف قصة هاملت وتشويه صورته .

وإذا كان الناصح من تراثنا يقول : « إن لم تكن حُسَيْنيّاً فكن زينبياً » : بمعنى : إذا لم تكن مستشهداً دفاعاً عن الحق مثل « الحسين » فكن شاهداً على الظلم مثل السيدة زينب – رضى الله عنها وعن أخيها – راوياً للبطولة والفداء الفذ ، فإننا نجد شكسبير بتقديمه لشخصية « هوراشيو » كأنه قد استلهم القاعدة نفسها عندما بدت وصيته واضحة تقول فى نهاية مسرحيته « هاملت » :

إن لم تكن « هاملتيا » أى : مجاهداً مستشهداً دفاعاً عن الحق وفاضحاً للفساد فكن – على الأقل – « هوراشيا » أى : مراقبا ، شاهداً ، راوياً للبطولة والفداء .

ورحم الله الجميع !

أنتيجون صديقتى

« لابد أن أموت ،
لقد عرفت ذلك كلّ عمرى –
وكيف أمنع نفسى عن هذه المعرفة ؟
حتى من دون حكمك على بالموت ،
هذا الذى يدوّى فى أذنى .
وإذا كان علىّ أن أموت مبكراً ، فإننى أعتبر ذلك مكسباً .
من على الأرض يعيش ، وسط حزن كحزنى
ويخفق فى أن يجد موته جائزة ثمينة ؟
ولذلك فإن ملاقاتى لقضائك ،
بالنسبة إلى علىٍ الأقل ،
يعتبر ألماً صغيراً عزيزا .
ولكنى ، لو أننى سمحت لابن أمى أن يتعفن وتركته جثة غير مدفونة ،
لكان هذا هو العذاب !
حكمك علىّ بالموت لايهم !
وإذا كانت أفعالى الحالية تصدمك
بصفتها حمقاء ،
فلنقل إننى قد اتهمت بالحمق
من : أحمق ! »

يتحرك قلبى مع كلمات « **سوفوكليس** » التى تأتينا قاطعة خمسة وعشرين قرناً لتتألق بقوة ووضوح وثبات كأنما ولدتها ضغوط القهر المعاصر حين تنطقها « **جين لابوتير** » : أنتيجون لندن ١٩٨٤ . وأرتكن على حافة الشرفة العليا من قاعة « كوتسلو » فى مبنى المسرح القومى .

أشرئب بعنقى حتى لاتفوتنى لفتة تدور فى بؤرة الحركة المسرحية التى أراها كلها تحت ناظرى من مسقط علوى فى هذا المسرح الصغير التجريبى ، الذى يبحث فى تجارب المسرح الكلاسيكى القديم ويقدم بنفس الوقت أطروحات لحلول مستقبلية ، ولذلك كان هو المكان النموذجى الذى يمكنه أن يقدم « أنتيجون » سوفوكليس فى نقاش حول أهم قضية فى تاريخ الإنسان وهى :

متى ينتهى حق الحاكم ويبدأ حق الشعب ؟

أو بشكل آخر :

عند أى نقطة يكون عصيان أمر الحاكم شىء لامفر منه ولو كان الثمن « الدفن حياً فى قبر صخرى بين الأموات » ؟

الشىء الرائع الذى نجح فيه المخرجان « جون برجس » و « بيتر جيل » هو أنهما استطاعا أن يقدما عرضاً مسرحياً ممتعا – جماليا – سريعاً ، دقيقا محكماً مع إبراز « الجدل » عقلياً ، روحياً ، سياسيا كأنه يدور فى إطار « ندوة » نقاش فكرية من دون لحظة ملل ، بل : جيشان وتحفز وتوثب لدى المشاهد للمشاركة بانحياز مطلق نحو « أنتيجون » شهيدة الموقف « الصحيح » بغض النظر عما يعقبه من مهالك .

« أوديب »، الشهير فى الحكاية اليونانية بأنه الإبن الملعون الذى قتل أباه لايوس وتزوج أمه جوكاستا ، أنجب أوديب من أمه هذه أربعة أبناء هم : « إيتيوكليس » وأخيه الأصغر « بولينيسس » وبطلتنا « أنتيجون » وأختها « إسمين » .

عندما اكتشف « أوديب » جريمته ، التى اقترفها دون أن يدرى ، فقأ عينيه وسار هائماً على وجهه لكنه قبل أن يترك مدينته طيبة لعن ابنيه بلعنة أن يقتلا بعضهما البعض ! وتتشكل الأقدار بحيث يختلف الإبنان على الحكم - وكان المفروض أن يحكما بالتناوب مشاركة إلا أن الأخ الأكبر « إيتوكليس » يتفق مع خاله « كريون » على طرد أخيه الأصغر « بولينيسس » مما يدفع « بولينيسس » إلى تشكيل جيش من الخارج ويحاصر مدينته محارباً أخاه وخاله . ويقتتل الأخوان ويقتل بعضهما بعضاً كما يقول « سوفوكليس » على لسان الكورس :

« ... هذان الأخوان فى الدم ،
من أب واحد وأم واحدة ، متشابهان فى الغضب ،
.....
تصادما وفازا بجائزة الموت المشتركة ! »

وعلى هذا يصير الخال « كريون » هو الملك ويقرر لحظة فوزه أن يشيع جثمان حليفه « إيتيوكليس » فى احتفال يليق ببطل عظيم ويوسد جثمانه القبر بيديه إجلالا لشرف الميت بينما يأمر بعدم دفن جثمان « بولينيسس » ليترك تنهشه الكلاب المفترسة والطيور الجارحة عقوبة لخيانته . ويتوعد الموت لمن يدفن الجثة أيا من كان .

وعدم دفن الموتى خطيئة تحرمها العقيدة اليونانية القديمة التى تنص على ضرورة دفن الموتى حتى ولو كانوا جثثا من جيش الأعداء . لكن « كريون » فى حقده البالغ على خصمه يتعدى حدوده فلا يقف عند حقّه بل يكسر تعاليم عقيدة شعبه ويعصى أوامر الآلهة التى يؤمن بها ويجور ! ومع ذلك ، فلا أحد يجرؤ على مواجهته أو مراجعته ويعقد الخوف ألسنة الجميع ! فتتقدم « أنتيجون » ، رغم تحذير شقيقتها التى تتهمها بأنها « تحب المستحيل » ، وتقوم بدفن جثة أخيها مستجيبة لواجب عقيدتها ، متحدية أمر « كريون » عيناً فى عين بلا خشية أو وجل : فإذا كان « كريون » ، وهو بشر ، لايخشى آلهته فكيف تخشاه هى ؟

وبشجاعة ، مستمدة من إيمان مطلق بصحة موقفها تستعجله فى تنفيذ قراره بقتلها :

– « اعطنى المجد ! وأى مجد يمكننى أن أفوزبه
أكثر من أن أعطى أخى دفنا لائقاً ؟
وهؤلاء المواطنون يوافقونى جميعاً ،
ولولا أن شفاههم يغلقها الخوف ،
لمدحونى كذلك !
يالحظ الطغاة !
إنهم يملكون امتيازات القوة ،
القوة الفاسدة ، وهى أن يفعل الناس
ويقولوا كل مايرضيهم ! »

ويأخذ الحراس « أنتيجون » – صديقتى – إلى حيث ينفذ فيها حكم الملك الجائر بأن تدفن حيّة فى قبر صخرى بين الأموات !

ويأتيه ابنه « هيمون » ، وهو خطيب « أنتيجون » ، وبكل الإخلاص والحب لأبيه يحاول أن يعيد البصيرة لعقل « كريون » الذى يعميه الغضب والكبرياء فلا يرى سوى حقه كحاكم يجب أن يطاع وإلا تعم الفوضى ! ويتفجر هذا الموقف بأجمل مايمكن أن يقال لديكتاتور لاتصبح لإيجابياته أية قيمة إذا ماصاحبها الجور والطغيان – ولو كانت إيجابياته إطعام الفلاحين وإضاءة قراهم وإلباسهم الأحذية ! كما يمن علينا الذين يدعمون إلى الآن الطغيان الناصرى الذى أذل مصر فى الستينيات –

ويقول « هيمون » فى هذا الموقف للملك :

« – ... إن رجل الشارع يخشى طلعتك ،
إنه لايقول أبداً فى وجهك شيئاً لايرضيك .
ولكن مهمتى أن أصيد الهمسات فى الظلام ،
كيف تبكى المدينة هذه الفتاة الصغيرة ،
... إنهم يقولون ...
أهذا الموت الوحشى من أجل عمل عظيم ؟
....
الموت ؟ إنها تستحق تاجاً لامعاً من الذهب ! »

ولكن الديكتاتور خليق به ألا يفهم فيقول :

– « وهل طيبة على وشك أن تقول لى كيف أحكم ؟ »

ويضع الابن المحب كلمته الأخيرة أمام الملك الذى استشرى فيه داء البغاة فلا حيلة فى شفائه :

– « ليس هناك مدينة على الإطلاق ، يحكمها رجل واحدبمفرده ! »

ومع خروج « هيمون » يدخل العراف الحكيم الأعمى « ترسياس » لنرى كيف يكون « بصيراً » من فقد عينيه ، وكيف يكون « أعمى » من فقد بصيرته . ويقول الحكيم ترسياس :

– « إن الأعمى عليه أن يسير مع دليل يرشده » !

لكن « كريون » لايرى حتى هذه الحكمة البديهية .

ومع الغرور والعناد والتخبط الناتج عن الانفراد بالرأى والقرار الخاطىء رغم أنف « العقيدة » و « الحكمة » و« الحب » ينتهى بيت « كريون » بالدمار حيث يقتل ابنه نفسه وتتبعه أمه حزنا عليه وهى تلعن « كريون » زوجها الذى دفع ابنه إلى الموت على مذبح شهوة التسلط والانفراد بالرأى .

وماذا بقى بعد ذلك « لكريون » سوى ماقاله له ابنه وهو يفر من وجهه :

– « كم ستكون ملكا رائعاً لجزيرة صحراوية
هى أنت : أنت بمفردك ! »

لقد كان حقاً عرضاً مشبعاً ، لائقا بالإنسان ! وهكذا دائماً تكون ثمار : « الحرية » .

سبتمبر ١٩٨٤

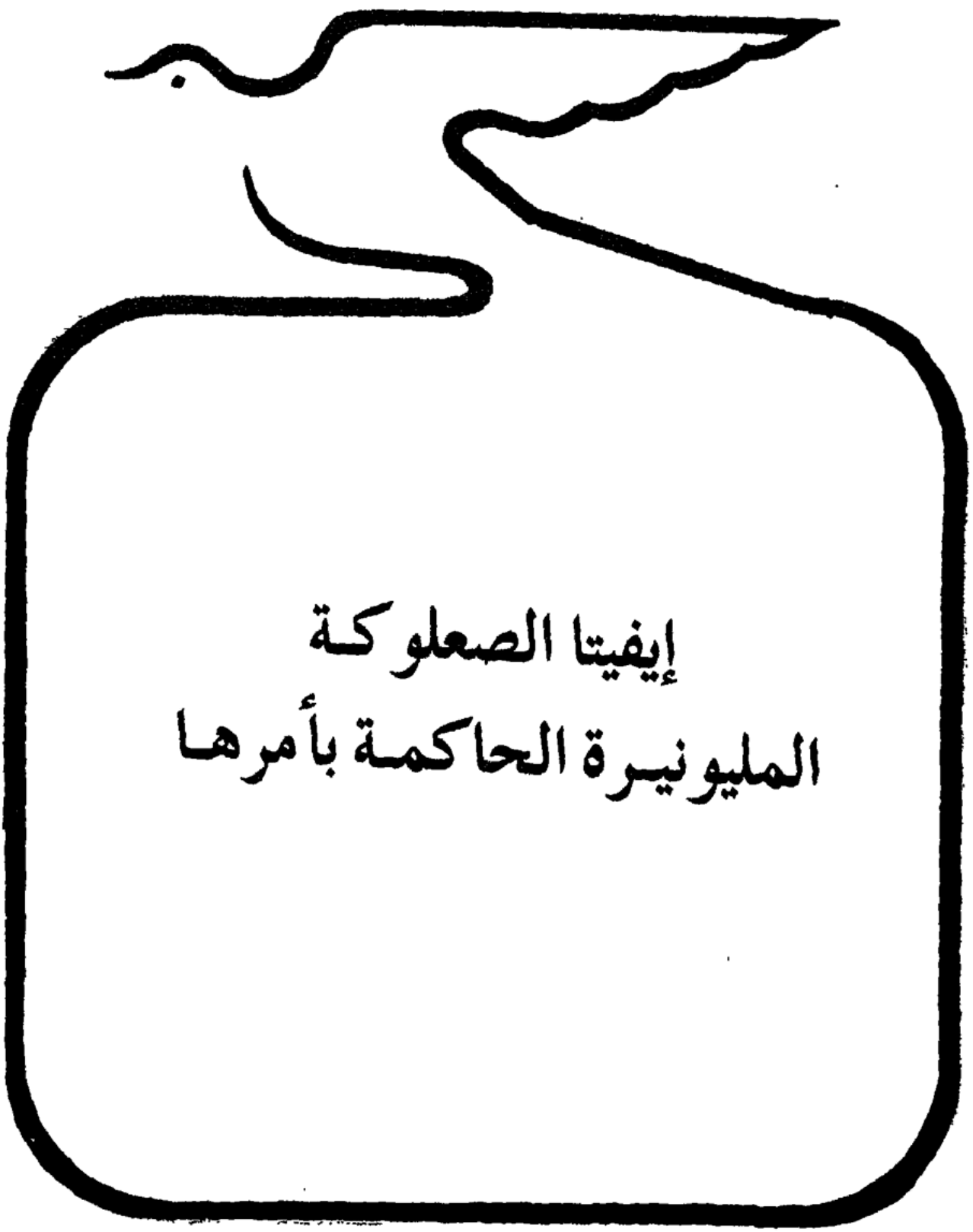
إيفيتا الصعلوكة
المليونيرة الحاكمة بأمرها

« إيفيتا » أوبرا حديثة تأليف « توم ريس » شعرا و « أندروللويد وبر » موسيقى ، قدمت عرضها الأول الافتتاحى على مسرح « الأميرإدوارد » يوم ٢١ يونيو ١٩٧٨ ولايزال مسرح « الأميرإدوارد » ، الذى يكمن سر أناقته فى نظافته ، يستقبل جماهير المشاهدين حيث دلفت بينهم فى يوم الاثنين ٦ اغسطس ١٩٨٤ . مرشدات المقاعد الفلبينيات يحاولن بتعبير ترفع مصطنع أن يثبتن أهميتهن إلى حد قد يعتدى على أهميتك أنت شخصيا – رغم أن العمل المسرحى لايكتمل من دونك يامتفرج يادافع ثمن البطاقة – وقلة الذوق هذه فى المعاملة ليست فى قاموس فن الإرشاد الإنجليزى إلى المقاعد ، فالحقيقة أن المرشد الإنجليزى مهذب و « بشوش » مع نشاط ودقة – سواء كان رجلا أم امرأة – وكذلك إذا كان باكستانيا أو هنديا فهو يزيد على الإنجليزى بما يبديه من طيبة وتعاطف . ولكن هؤلاء الفلبينيات يذكرننى ببائعات محل صيدناوى بميدان سليمان باشا : ينظرن إليك بملل وكسل وعداء . أمد يدى مع ذلك وأسحب من « واحدة » برنامج الحفل الصغير الذى يوزع مجانا فترمقنى متعالية وأنا أتجه نحو مقعدى دون إرشاد منها . وحين أجلس ألمح زميلة لها تحمل

مجموعة « كتالوجات » أكبر حجما وأسمك من البرنامج الذى بيدى . أشير إلى « الست هانم » ، وهى تركن ظهرها إلى حائط فى سأم ، لكى تعطينى نسخة فتقول من مكانها : « جنيه ونصف » ! وأومىء برأسى موافقة فتكرهنى هى الأخرى لأنى أرغمها على التحرك فأشعر بسعادة لأنى أغظتها ودفعتها إلى العمل .

على غلاف « الكتالوج » – ٣٢ صفحة – صورة « إيفابيرون » وبالداخل مجموعة صور لها منذ طفولتها حتى وفاتها مع ملخص دقيق لتاريخ حياتها منذ ولادتها ٧ مايو ١٩١٩ ابنة غير شرعية لفلاح فقير وأم بائسة فى قرية خاملة ! ثم وهى تدرج فى العار والمهانة صبية يافعة تعمل فى حانة ليليه ثم تهرب مع مغنى الحانة إلى بيونس أيريس حيث ساحة حلمها نحو الشهرة والمجد والثروة .

يحرص « الكتالوج » المعد بعناية وجهد – يستحقان فعلا جنيها ونصفا – على استعراض يوميات حياة « إيفابيرون » ! ويسجل كلماتها الهامة كوثائق تفسر للمشاهد – فيما بعد – الأسباب التى يعتمد عليها هذا العرض المسرحى فى التنديد بشخصية مثل « إيفابيرون » ، ليرينا من خلالها العديد من الأمراض والأوبئة التى تغشى الحياة السياسية لكثير من البلدان وتتحكم فى مصائر الكثير من الشعوب .

وقبل أن تنطفىء أنوار المسرح لتبدأ أوبرا « إيفيتا » ، قفزت عيناى من سطر لآخر تلملم صورة عامة عن الشخصية الحقيقية التى تستند إليها الصورة المسرحية التى سوف تطل على بعد لحظات :

- ١٩٢٦ يموت والد « إيفا » وتحس وهى طفلة لم تتعد السابعة بألم المهانة حين تمنع هى وأمها من حضور جنازته مع أسرته الشرعية .

● الأرجنتين فى طفولة « إيفا » بلد ينقسم بعمق إلى طبقات اجتماعية ، وكانت هى من زاوية فقرها ومهانتها الاجتماعية تنظر بحسد وتمن إلى الحياة المترفة للإقطاعيين الأغنياء من حولها ، بل وكانت تطمع فى الترف الأكبر الذى يرتع فيه أغنياء بيونس أيريس العاصمة وهذا الذى يدفعها إلى الهرب عام ١٩٣٤ مع صديقها مغنى الحانة وهى لم تتجاوز الخامسة عشرة ، وحين تصل بيونس أيريس تتخلى عنه فورا لتشق طريقها بين الرجال الأثرياء ذوى المناصب . كان الثراء حلمها لكى تستطيع أن ترد الصفعات لكل من تطاولوا عليها بثرائهم ومكانتهم الاجتماعية .

● بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٣ تتقدم كثيرا كممثلة فى المسرح والسينما والإذاعة بفضل صداقاتها العديدة بين ضباط الرتب العالية بالجيش الأرجنتينى . إلا أن هؤلاء لم ينسوا لها أبدا أنها جاءت من القاع إلى القمة عبر سلم « الرذيلة » ! .

● فى عام ١٩٤٣ تتقابل « إيفا » مع الكولونيل جوان بيرون الرجل القوى فى الحكومة والمعروف بتعلقه بالممثلات الصغيرات . كان بيرون أرملا قد بلغ الثامنة والأربعين وكانت نصف عمره فى الرابعة والعشرين . كانا متشابهين فى الطموح . كان واحدا من الضباط الذين شاركوا فى قلب نظام الحكم فى الأرجنتين فى يونيو ١٩٤٣ . وصار بيرون وزيرا للحرب ثم وزيرا للعمل حيث وجد فرصته ليبنى نجوميته السياسية على نسق موسولينى مثله الأعلى . كان بيرون هو تماما « السلمة » النهائية التى تبحث عنها « إيفا » لترتقى « القمة » فلم تتردد فى أن تعلن له عن حبها وإيمانها المطلق به كرجل وكسياسى ! واستطاعت أن تجعل بيرون لايعرف كيف يستغنى عنها .

● عام ١٩٤٤ وصلت « إيفا » إلى أعلى أجر تتقاضاه ممثلة فى الإذاعة وذلك بسبب كونها عشيقة بيرون .

● تتصارع القوى فى الجيش وتكون هناك محاولة للتخلص من بيرون وسجنه وهنا تتاح الفرصة لإيفا لتضع قدراتها فى حيل التحرك « السياسى » لصالح بيرون وتحاول تكتيل وجمع أعوانه بين صفوف العمال وتنجح فى تنظيم مظاهرات عمالية تطالب بالإفراج عنه : « هرعت إلى الشوارع أبحث عن هؤلاء الأصدقاء الذين مازال بإمكانهم مساعدته ... إننى لست أكثر من امرأة تعمل وتحاول أن تتعاون مع هذا الوطنى الذى يشكل المستقبل العظيم لأمتنا » ! .

● لم يكن من الممكن أن تظل « إيفا » مجرد عشيقة لبيرون : فلكى يحقق طموحه فى أن يكون رئيسا وتحقق طموحها فى أن تكون السيدة الأولى كان يجب أن يتزوجا . ويتم الزواج سرا فى ٢٥ اكتوبر ١٩٤٥ بعد أيام من خروجه من السجن . بعد شهور يتم انتخابه رئيسا للجمهورية فى ٢٤ فبراير ١٩٤٦ ، وتصبح « إيفا » الصعلوكة « إيفيتا » : حبيبة العمال ! وتصير أقوى امرأة فى الأرجنتين ، بل أقوى من الرجال أيضا : تمتلك السلطة والثروة والمكانة الاجتماعية وتتحقق كل طموحاتها وأمانيها وعمرها لم يتجاوز السابعة والعشرين : بعد ١٢ سنة فقط من وصولها بيونس أيريس فقيرة مجهولة مهانة هاربة من مدينتها مع مغنى حانة ! .

● فى ١٩٤٧ تقوم « إيفيتا » ، سيدة الأرجنتين الأولى بجولة فى أوروبا ترفض فيها الذهاب لانجلترا بسبب استقبال ملكى بارد سابق لها . وفى أسبانيا يستقبلها فرانكو والشعب الأسبانى بترحاب وحماس ، وتتقابل فى إيطاليا مع البابا بينما عامة الشعب الإيطالى يهتف ضدها : « ساقطة » ! .

• وفى فرنسا تحرص على انتزاع رضاء الفرنسيين باستعراض أناقتها الباذخة ، ولكنهم يواجهوها بأنهم كانوا يفضلون – بعد حرب قاسية – لو أن بيرون أرسل إليهم سفينة محملة باللحم البقرى الأرجنتينى والقمح !

وفى هذه الرحلة لم تنس – حبيبة العمال الحريصة على مصالحهم – أن تجلب معها كمية من الأزياء الثمينة تكفى لشهرين بواقع أربعة أثواب مختلفة كل يوم ! وكان كل من يقابلها يعبر عن ذهوله لكمية المجوهرات النادرة التى ترتديها كجزء بسيط من المجموعة الهائلة التى تمتلكها . ولم تنس فى باريس أن تقتنى المزيد من أثواب أخرى من صنع كبار خياطى فرنسا .

وحين تترك باريس إلى سويسرا يكون لايزال متبقيا معها ، بعد الشراء والإنفاق ، ٢٥ مليون دولار افتتحت بها حسابا لها فى بنوك سويسرا الآمنة ! ورغم ثقتها « الغالية » هذه تجاه سويسرا إلا أن الشعب السويسرى لم يجد لديه استقبالا ملائما لها أنسب من قذفها بالطماطم ! .

وتجد « إيفيتا » عزاءها حين تعود إلى الأرجنتين وتحشد لها الجموع الصاخبة لتحيتها باعتبارها ابنة الأرجنتين المخلصة التى رفعت رأسها عاليا فى العالمين !

• مازال عام ١٩٤٧ ، بعد إيداعها ٢٥ مليون دولار لحسابها الخاص تحتاج « إيفيتا » لمزيد من الدخل لتغذية رصيدها المودع فى البنك السويسرى ، فتندفع بقوة نحو إقامة مشروعها الخيرى « مؤسسة إيفا للعون الاجتماعى » ! وتبدأ حملة لجمع التبرعات للمشروع وتأخذ هذه الحملة واقع « الإجبار » على التبرع تحت قناع « التطوع » فى حب الخير إذ يبدأ سيف التنكيل يبطش بكل من تسول له نفسه رفض دفع ماتطلبه «إيفيتا » أوحتى التردد فى الدفع ! .

ومن البداية تعلن « إيفيتا » أن مبدأ « تسجيل » المبالغ ، التى يتم جمعها للمؤسسة ، فى الدفاتر : « ... لغورأسمالى ! إننى استعمل هذه الأموال لمساعدة الفقراء وليس بإمكانى أن أتوقف لأقوم بإحصائها » ! .

● فى عام ١٩٥١ يخرج اقتراح بترشيحها نائبة رئيس جمهورية ، ولكن الجيش يقاوم هذا الاقتراح خوفا من أن يموت بيرون وتجد القوات المسلحة « إيفيتا » – الصعلوكة المليونيرة – قائدها الأعلى ! وتحدث المفاجأة حين تكشف « إيفيتا » أنها هى التى على وشك الموت بسبب إصابتها بالسرطان ، مما يضطرها إلى « الاعتذار » عن قبول ترشيحها نائبة رئيس جمهورية !

وتنتهى حياة « إيفابيرون » التى لم تتجاوز ٣٣ عاما ، كرست تسع سنوات منها لبيرون وتملكت فيها السلطة ست سنوات حكمت فيها الأرجنتين بأمرها !

أطوى الكتالوج حين تطفأ الأنوار ويبدأ المشهد الافتتاحى من الفصل الاول لأوبرا « إيفيتا » :

فى دار سينما بمدينة بيونس أيريس ، يتوقف عرض الفيلم ليعلن على المتفرجين – ومن بينهم طالب اسمه « شى » – نبأ وفاة :

« إيفا بيرون الزعيمة الروحية للأمة قد دخلت عالم الخلود » !
بكاء وعويل ومشاهد لجموع ضخمة : إنها الجنازة التاريخية الفخمة لإيفا .
« شى » لايشارك فى الصخب ويعلن موقفه من خلال أغنية : « آه .. ياله من سيرك » !

لقطات من الماضى تقود إلى عام ١٩٣٤ ونرى مشهد « إيفا ديوارت » فى الخامسة عشرة فى حانة ليلية بمدينتها الصغيرة وهى ترجو مغنى بالحانة لها معه علاقة أن يأخذها إلى المدينة الكبيرة ، ويعلن المغنى عن تردده ويلخص خوفه عليها فى أغنية « إيفا حذار من المدينة » ! لكن لاخوف على « إيفا » التى ماإن تصل إلى المدينة حتى تتخلص من مغنى الحانة سريعا .

ومن خلال تشكيل مسرحى كاريكاتيرى ممعن فى السخريه نرى « إيفا » – التى تؤديها ببراعة الممثلة خفيفة الظل جاكى شابيل – تغنى « مساء الخير وشكرا » ! وهى تتسلق ، عبر سلسلة من الرجال يمثل كل واحد منهم درجة صعود ، سلم الشهرة والثروة !

ويلف المسرح ويتغير فى إحكام ودقة والمخرج كأنه حاو يلعب بكل إبهارات القدرات الميكانيكية والتكنولوجية التى يمتلكها ، مع إمكانات فرقته التمثيلية الراقصة المغنية المدربة تدريبا يؤهلها بحق لتكون على قمة الجاذبات التى تشد السائح أو المتفرج الذى قد لايعنيه سوى الرقص بحد ذاته والموسيقى والغناء ، حتى ليبدو فى بعض اللحظات أن هناك مغالاة ممجوجة فى إطالة الاستعراضات الراقصة والتى يبدو فيها أن عرض أجساد الراقصات هدفا مقصودا لغير وجه الحبكة الدرامية أو الضرورة الأوبراليه .

تتوالى اللقطات : من عام ١٩٤٣ ويظهر الممثل « دانيل بنزالى » يؤدى شخصية « بيرون » ويغنى : « فن الممكن » ! يصور بها كيف أن منصب الرئاسة لايعطى الأمان لساكنه . بعدها نرى اللقاء الذى من الممكن أن تكون « إيفا » قد سعت إليه لتغنى للكولونيل بيرون : « إننى ملائمة لك بشكل

مدهش ! » تقديرا منها لنجومية بيرون السياسية الصاعدة نحو القوة والسلطة . بعد ذلك نراها وهى تنتقل لتقيم فى بيت الكولونيل طاردة منه ساكنة سابقة لتبدأ هيمنتها على شئون حياته مستفزة حنق « الجيش » و « الارستقراطية الأرجنتينية » اللذين يظلان أعدى أعدائها حتى نهاية حياتها . ومع لقطات « إيفا » وهى تؤجج طموح بيرون نحو الرئاسة وتدفعه وتدخل معه إلى مشاهد « التلاحم الجماهيرى » ينتهى الفصل الأول بأغنية : « أرجنتينا الجديدة » !

حين يبدأ الفصل الثانى تكون « إيفا » قد صارت « إيفيتا » : معبودة الجماهير وزوجة بيرون ، تطل من شرفة قصر « كازا روزادا » يوم تقليد بيرون منصب الرئاسة فى يونيو ١٩٤٦ . الجماهير تحيى «إيفيتا » بنصيب أوفى من تحيتها لبيرون نفسه ، وتنتهج الممثلة « جاكى شابيل » أسلوب المحاكاة النقدية الساخرة من داخل تلبسها لشخصية « إيفيتا » بما يبرز أنها منفصلة عنها وغير متعاطفة معها على أساس أنها تخدع الجماهير بخطابتها العاطفية ومظهرها الجميل الذى يخفى ذاتا عملية سوداء . وتغنى « جاكى » بصدق : « لاتبك على أرجنتينا فأنا لاأستحق ! » .

وبين الجموع المهللة لايخفى على « شى » – رمز الرأى الآخر – رؤية وتذوق الجانب الكريه من وجهى إيفيتا وبيرون ، فوسط لقطات التأييد الحارة لايفيتا وبيرون ، لايفوت العمل أن يبرز لنا « الهراوة » التى تتهاوى على دماغ « شى » وعنقه والبوليس يسحبه من قفاه إلى حيث لاندرى خارج الجزء الظاهر من ساحة اللعب على المسرح .

« شى » هو : « شى جيفارا » ، الثائر الأرجنتينى الذى سطع نجمه فى الستينيات بعد أن ترك وطنه حالما يحمل علم مناهضة الإمبريالية العالمية فى كل مكان ، وتقدمه هذه الأوبرا فى دور المعلق ، والمراقب الذى يقف خارج الحدث يتأمله ويناقشه ويكشف « الوجه الآخر للعملة » ! دور « شى » فى هذه الأوبرا أشبه بدور الكورس فى المسرح اليونانى القديم .

ليس هناك علاقة خاصة بين « إيفا بيرون » و « جيفارا » سوى أنهما من الأرجنتين وأن الثانى كان طالبا خلال فترة بيرون ومعارضا رافضا له ولزوجته بصفتهما دكتاتوريين دجالين زايدا على أحلام الشعب وارتفعا فوق أكتاف العمال ولم يحققا لهم سوى السراب .

ومن علاقة التعارض والتناقض هذه بين المدلول الذى يوحى به رمز « بيرون وإيفا » ومدلول رمز « جيفارا » تنشأ النقطة التى يقوم عليها بناء هذه الأوبرا الذى يتكون من مسبحة مشاهد فى لقطات سريعة ذات مغزى مستمدة من « وقائع » منتخبة بعناية من حياة إيفا بيرون ، لتعزز الخطة الدرامية فى تصاعد بنسج موقفها النهائى وهو :

إدانة الطموح المرضى للاستئثار بقوة السلطة من أجل إرضاء شهوة التسلط المدمرة . وإدانة أبشع أشكال الجشع الذى يغرى الإنسان باستغلال أقدس الشعارات للإثراء من ورائها ثراء فرديا قبيحا آثما . ويدلل العمل على أن هذه الأمراض لاتنشأ إلا تحت مظلة الدكتاتورية التى تحمى نفسها بالقمع والدجل السياسى وإلهاب مشاعر الناس بالتزييف المتواصل .

ولقد كان اختيار المؤلفين لاسم « إيفيتا » يحمل ، من البداية ، مؤشر السخرية وإبراز المفارقة بين حقيقة « إيفا » الأنانية الذاتية و « الخديعة » الكبرى التى سقط فيها الشعب الأرجنتينى الطيب حين استغلت أحلامه فى صناعة أسطورة « القديسة إيفيتا » !!

ولاشك أن هذه الأوبرا لم يكن يهمها أو يعنيها أن تنبش قبر امرأة ميتة لتكيل لها الاتهامات وتجلب عليها اللعنات ، لكنه اختيار لنموذج شخصية تواجدت وستتواجد على مدار الزمن الإنسانى فى كل العصور وشتى البلدان ، ولذلك كان على « الفن » أن يتأملها ويحللها ويقدمها ويحكم عليها بمعيار القيم الإنسانية الأزلية التى لايختلف عندها أحد أن : لاتقتل ، لاتسرق ، لاتكذب ، لاتزن ولاتكن طماعا تأكل لحم إخوانك ... الخ ... الخ ! ...

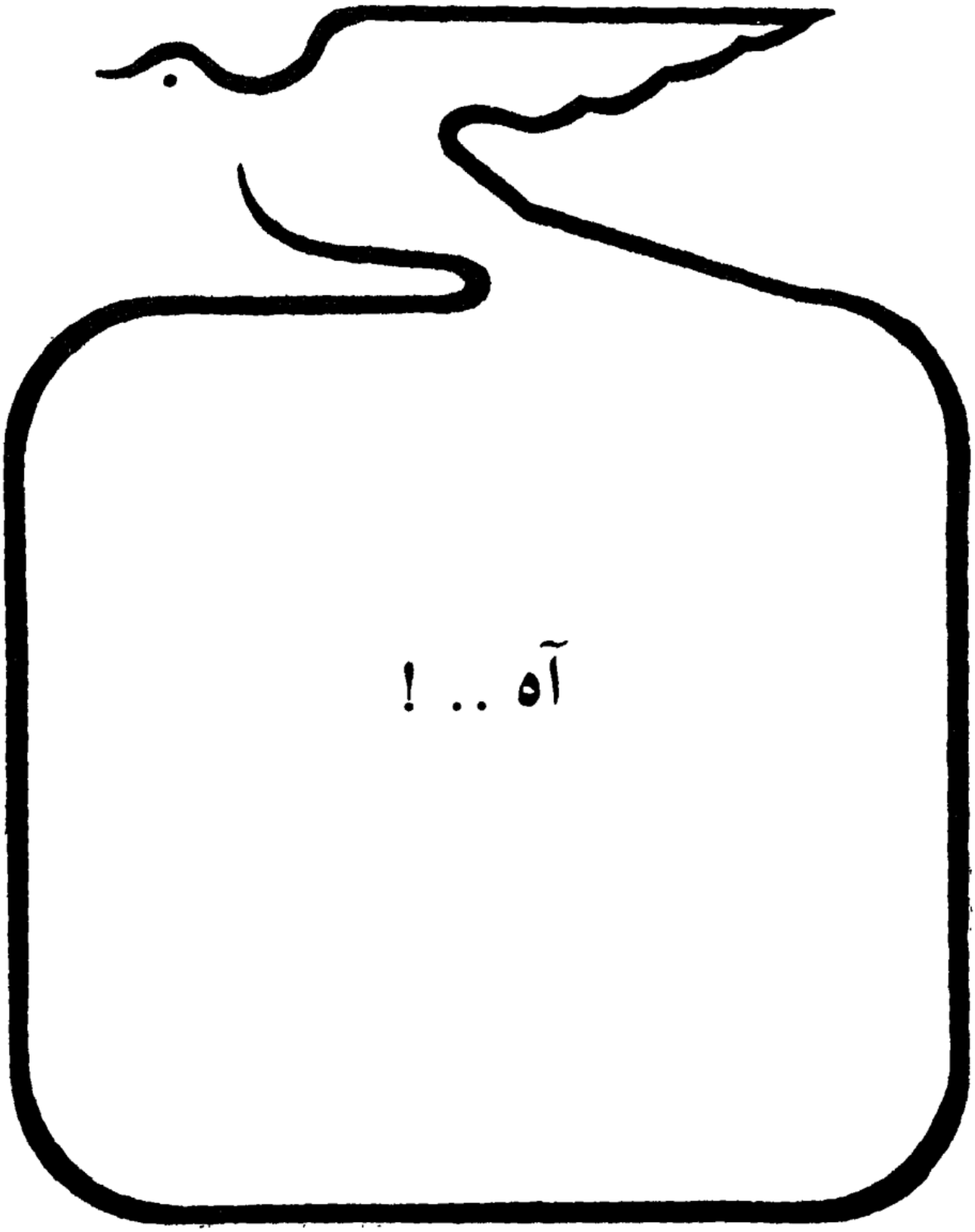
آه .. !

اختارت إحدى المحررات بالمصور عدداً من الشهادات حول ماأسمته « أزمة المسرح » لفتت نظرى شهادتين للمخرج الأستاذ سمير العصفورى والمخرج الأستاذ شاكر عبد اللطيف . كانت الشهادتان صادقتين مباشرتين نحو معاناة المسرح المصرى وبالتالى المسرحيين المصريين . أهم ماقاله سمير العصفورى اعترافه الواقعى بأن المتفرج يخرج من معظم العروض المسرحية مقتولاً سأماً . هذه الحالة التى شخصها سمير العصفورى لايمكنك أن تضيف إليها كلمة واحدة . فسيان أن يكون العرض تراجيدياً أو كوميدياً ، وسيان أن يكون مبتذلا أو محترماً ملامساً لآلام الجماهير أم عازفاً عنها . ملتزماً بحكمة : « ابعد عن السياسة وغنى لها ! »

حين يبدأ العمل الفنى فى إفزاز الملل والسأم علينا أن نعرف على الفور أنه « فاسد » ولايصلح للعرض أو التداول وإلا أصبح جريمة مماثلة لجريمة توزيع الدجاج الذى ضرب فيه السم . ومنذ مدة وأنا ألحظ هذا الموات القاتل وقد طال مسرحنا كله . وجرثومة الملل والسأم كانت موجودة دائماً وكانت ظاهرة بوضوح منذ مسرح الستينيات ، إلا أن حيوية بعض العروض وحماسها – على

قلّتها – كانت تساعد المتفرج على استعادة تنفسه وجريان دمائه واستقرار معدته ، لكن ، عندما انهالت الضربات على المسرح والمسرحيين كان منطقيا أن تشحب فيه الحياة ويتفتت الحماس – (خاصة عندما صارت الحيوية والحماس قرينة اتهام يعاقب عليها كل من ضبط نابضاً بها !) –

وبدت فى لهجة المخرج شاكر عبد اللطيف المرارة الغاضبة فى مواجهة الزيف والكذبات الضخمة التى عاناها الشعب المصرى بأكمله طوال سنوات طويلة . وعندما تكلم هكذا بدا للزميلة المحررة أنه خرج عن موضوع المسرح فنبهته إلى أن رأس موضوعها هو « أزمة المسرح » ولم تدر أن المسرح هو مرآة تعكس البلد والناس وأن أزمة المسرح ليست سوى جزئية من أزمة الثقافة والمثقفين ، تلك الأزمة التى تطرح نفسها تعبيراً عن اختناقات الوطن بأكمله .

صورة المسرح المصرى باختصار هى تماماً مصغّر صورة مصر قبل هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ ومابعدها : حلم عريض كبير ملىء بالاحتمالات الثرية الخصبة ، ثم تصفية قاسية موجعة لكل الآمال الكبيرة .

ويلمس رئيس التحرير ظاهرة الملل والسأم التى يسميها – فى إفتتاحية المصور – ظاهرة فتور الناس ويتساءل : « لماذا فتر حماس الناس ؟ »

وأتساءل أنا : وكيف لايفتر حماس الناس ؟ والحماس طقس متكامل : المتحمس متحمس لكل شىء . وحين يتصور البعض أن بإمكانه إجهاض حماس لايعجبه مع الإبقاء على حماس آخر يوافقه فعليه أن يفهم أن هذا مستحيل لسبب بسيط وهو أن الإنسان مازال إلى الآن من مخلوقات الله الكريمة ولم يوجد بعد إنسان من خلق وزارة داخلية .

إذا كانت « حالة الطوارىء » دواء حقاً فعلينا أن نتحمل آثاره الجانبية وأولها : « فتور حماس الناس » .

إن الشعب المصرى يعانى من حالة اكتئاب جماعية : انظروا إليه فى الطريق وفى المكتب وفى الأسواق : فى كل مكان يتحرك بآلية وبروح ضرورة أداء الواجب وتسكين المسئوليات . فاقداً لروح الهواية أو كما يقول المصطلح الشعبى « المزاج » . نعم لم يعد الشعب المصرى يعمل بمزاج أو يأكل بمزاج أو حتى يرفه عن نفسه بمزاج .

فقد الشعب المصرى « مزاجه » وهو الشهير بكلمة « على مزاجى ! » التى هى جوهر روح الإبداع عنده !

هل تذكرون كيف اندفع الشعب المصرى فى حماس وجيشان نحو صناديق الانتخاب ليدلى بصوته فى انتخابات رئاسة الجمهورية حين اختار حسنى مبارك رئيسا له بعد ذهاب السادات ؟

كان الشعب لحظتها حراً تماماً فى ظروف أتاحت له حرية الإرادة والتعبير .

ماذا كانت مكافأة الشعب المصرى على موقفه ذلك الواعى الذى التزم بالصدق والانضباط ؟

قانون طوارىء يمتد سنة وراء سنة !
كيف لايحزن الشعب ويفتر ويأخذ على خاطره ؟
نحن جميعاً مصريون ونعرف طبائعنا جيداً . قد لانتكلم كثيراً : لكن هناك أشياء تجرحنا دلالتها قبل أن يؤلمنا فعلَها .

يقولون إن قانون الطوارىء لن يستخدم .

لايهم !

تكفى دلالته !

إن الشعب المصرى كريم . عزيز . و « الفتور » أحد أشكال احتجاجه حين يحس الإهانة .

● وتظل الحرية هى : معيار الحضارة وأساس المدنية والتقدم . وكلما ازدهرت الحرية ، ازدهر الإنسان وحين يزدهر الإنسان يطلق لحماسه العنان . تتفجر إمكاناته ورؤاه ويتدفق التعبير الفنى فى كل اتجاه فياضاً حياً نابضاً ويتألق ذكاؤه بالعلم والابتكار ويغمر الجميع الحب والرضاء .

مع الحرية يدق المسرح أوتاده حيث يجب أن يكون فى قلب الناس وباختيارهم ويهب النقد نداً إلى جواره : فكلاهما فرعان لبذرة الحرية الخصبة.

● النقد لايلد المسرح والمسرح لايلد النقد لكنهما يتولدان سوياً من رغبة البناء الجياشة ورغبة السعى نحو التواصل مع أمانى الأمة .

أبسط وظائف النقد وظيفة : تبصير الجمهور بمفاتيح العمل الفنى ومنطق قانونه الخاص حتى يمكن لهذا الجمهور أن يتواصل مع العمل ويفهمه : وبعدها يقبله أو يرفضه : لكن الدور الأهم والأصعب للنقد هو إضاءة الطريق المستقبلى للفن والتعاون مع الفنان لتكسير حواجز التعبير والمساهمة فى بلورة اكتشافات التعبير الجديدة ، واتخاذ موقف واضح إزاء هذه الاكتشافات بالقبول أو الرفض ، ومن ثم : حمل لواء الحرب لدخول معركة الدعوة إلى هذه الاكتشافات هذا هو دور « النقد » – فى طقس الحرية – الذى أقر من قبل ظهور مدن جديدة وضاءة فى الفن ، تولدت من الزلازل والبراكين التى أحدثتها معارك النقاد وسط حشد من الحماس المتبادل بينهم وبين المبدعين والجمهور المتلقى للإبداع .

● مع الفتور : مات التجريب ومعه انتهت المغامرة بطرق المجهول ! وبقينا مع الاجترار و« مصمصة » العظام .

التجريب هو الدورة الدموية اللازمة لتوليد طاقة متجددة للفن واستمرارية لحيويته . فرصة للتخلص من الخلايا التى ضعفت والقلوب التى ترهلت وإحلال خلايا أخرى قوية جديدة . إيقاف التجريب فى مسرحنا هو إسكات لدورته الطبيعية ؛ وعليه فهو قتل مباشر لهذا المسرح .

● إذا كان الفنان لايتابع « النقد » ولايخجل من الإفصاح عن ذلك ، يحق للناقد ألا يتابع بدوره عمل هذا « الفنان » ، فليس هناك « اتجاه واحد » فى طريق الفن والنقد . وحين تحاصر الصحف « الفنان » وتقتله صمتا ، ربما يتعلم ساعتها كيف يتابع وكيف يهتم !

فسيفساء ذاكرة

كم هى موحشة تلك الليالى التى لاتسطع فيها الأقمار !

أخرج إلى الشرفة أتنفس هواء الطابق الخامس .
راكداً :

الهواء والسماء ومشهد الأفق المخنوق وراء الأبنية المتنافرة .

لم يعد المشهد من الشرفة كما كان منذ ثلاثة وثلاثين عاماً عندما جئنا هذا البيت « الجديد ! ».

كان الأفق منبسطا وكان الاخضرار يكسو هذه العباسية الشرقية وكنت أرى فى نهاية المشهد « الجبل – التل » مُحمراً يبدو كحائط أو كسور للمدينة . وكانوا يقولون : هذا « الجبل » هو سبب كل الأتربة التى تعود تغطى الأثاث فور مسحه . وكان هناك كلام عن مشروع للتشجير حتى تختفى الأتربة ويهدأ الغبار . لم أكن أتوقع وقتها أن يعنى التشجير شيئاً غير الشجر،لم أكن أتوقع وقتها كل هذه الأبنية المتنافرة الصاعدة فى قبح لتغطى الأفق .

كانت العباسية الشرقية من أجمل أحياء القاهرة وأعرقها . خضراء . الشجر في شوارعها النظيفة المصقولة كثيف تعلوه في الربيع زهور صفراء جذلى . بيوتها مزخرفة ومعظمها من طابقين ولاتزيد عن أربعة تحوطها حدائق كبيرة أو صغيرة بها العنب والمانجو والجوافة والبرتقال واللارنج والنبق ! كلما عبرت شارعاً وخطوت إلى آخر نفحتك رائحة الياسمين واستقبلتك رائحة التمرحنة – (أين التمرحنة ؟) كنت تسمع فيها صوت اليمام والحمام يسبّح مطمئناً . أنا لاأقول شعراً : حقيقة كنت تسمع كذلك الكروان – تصوروا أنني لم أعد إلى سماع الكروان إلا عندما كنت بسجن القناطر ! أدام الله حدائقه وأذهب قضبانه !) –

نحن من سكان العباسية القدامى : نذهب ونعود إليها : عدنا إليها عام ١٩٤٤ ودخلت روضتها حيث صادقت فيمن صادقت : طفلة قصيرة رفيعة بيضاء الوجه صغيرة العينين كثيفة الحاجبين تقول كلاماً في هدوء وصوت خافت يجعلني أضحك في صخب بصوت عال يدفع المدرسات إلى عقابي . مولودة قبلي بأسبوعين في نفس شهر أغسطس ونفس عام ١٩٣٧ ونفس برجي الأسد وكان اسمها : « سناء حسين حسن البيسي » ! وحين انتقلنا إلى المدرسة الإبتدائية ظلت سناء البيسي إلى جواري : قصيرة ورفيعة تحفظ كتاب التاريخ وتملأ ورقة الرسم في جمال وهي تغني في نشاز : « أنا بنت النيل أخت الهرم ! » وتنافسني في اللغة العربية لكني أصرعها بالضربة القاضية في الحساب وتختبيء تحت « الدرج » وأنا ألقي المحفوظات في أداء مسرحي وصوت جريء ! وفي العودة إلى منازلنا كنا نمر على بيت « دسوقي باشا أباظة » وكانت له حديقة جميلة مليئة بشجر النبق وكانت سناء التي تخجل من إلقاء المحفوظات تتملكها جرأة انتحارية حين ترى النبق ولاتهدأ نظرة الشيطنة في عينيها إلا بعد أن تملأ جيوبي

وجيوبها بحبات النبق المسروق . كانت سناء تسكن فى بيت مزخرف مقابل حديقة النبق ، وكانت المنطقة بعده الخلاء : الجبل والمقابر . وكنت أذهب مع شقيقتى فاطمة لنزور سناء فى ليالى رمضان فتأخذنا وننضم إلى بقية أصدقائها الشياطين من أولاد الخرزاتى وغيرهم نلعب بالقرب من الخلاء لعبة « البحث عن العفاريت » حتى يتملكنا الخوف وتصطك أسناننا . تشحب التفصيلات ولايتبقى سوى رائحة التمرحنة وحفيف الشجر والشارع المصقول والأرصفة الواضحة وسناء البيسى وشلتها من الصبيان والصبايا يسيرون معنا حتى تظهر أضواء « ميدان الساعة » : « ميدان فاروق » أو « ميدان الجيش حالياً » كان عامود الساعة يتوسط الميدان فضياً أنيقاً : وكانت الساعة بثلاث واجهات نظيفة مضيئة يأتى من يباشرها كل يوم ليتأكد من صحة عقاربها . وكان رسم الساعة والميدان موضوعاً ثابتاً نرسمه كل عام فى كراسة الرسم . كان الميدان مصقولاً يلمع إسفلته ناعماً كالبشرة الصافية – (والله العظيم !) وكانت تحده من جانب عمارة مزركشة بديعة الصنع اسمها « عمارة مشكى » تأخذ ناصية شارع العباسية مع شارع « فاروق » – (الجيش) – وكان يقابلها « سبيل أم عباس » برخامه الأبيض وفسيفسائه الأزرق والوردى وبلاطه المذهل وأحواضه المستديرة والمياه تنساب فيها تحدث خريراً ووشاً لطيفاً مع صياح العصافير التى تستقى مع الناس – (نعم لم تكن العصافير تزقزق بل كانت تصيح فى مظاهرة وتجمع وتجمهر من الفرح وبحبوح العيش !) – وكان هذا السبيل يعطى إمتداداً لاتساع الميدان وكانت « عمارة سويلم » تبرز بارتفاعها إلى جواره جميلة مزخرفة فى اقتصاد وإتقان على بقية امتداد شارع العباسية المنتهى بالترام الأبيض الذى يصل العباسية بمصر الجديدة ! – (أول أحزان قلبى الغض كان يوم تم هدم هذا السبيل بلا رحمه وأقاموا مكانه عمارة مرتفعة فى قبح وخرس) .

كل صباح كنت وشقيقتى فاطمة نعبر ميدان « فاروق » قادمتين من بداية شارع العباسية على مقربة من حديقة « الظاهر بيبرس » متوجهتين إلى المدرسة الإبتدائية . وكنا نضع على صدرنا شارة حمراء على هيئة قلب مكتوب فيها « الجلاء بالدماء » وصوت أم كلثوم يملأ الميدان من المذياع « ياشباب النيل ياعماد الجيل هذه مصر تناديكم فلبوا .. » وعمال الصحة يصبون « الفنيك » فى بالوعات المجارى والصرف !

●

مظاهرات وحادثة كوبرى عباس : تأخذنى أمى لنزور أخى الكبير الطالب المصاب فى مستشفى القصر العينى . كل المصابين معتقلين وأمى تبكى وأنا أشعر بالبرد .

●

وباء الكوليرا . وحرب فلسطين وعام ١٩٤٨ والشعب الطيب يحمى أطفال اليهود الخارجين من المدرسة الإسرائيلية والناس تقول : « حرام ! دول يهود مصريين مالهمش دعوة ! » نمر كل يوم أنا وفاطمة على المدرسة الإسرائيلية المقابلة لسبيل أم عباس ونحن ذاهبتان إلى مدرستنا وتغلى فاطمة من الغيظ لأن أطفال اليهود فى عمارتنا يكتبون على جدران السلم « فلسطين لليهود » أمام كل « فلسطين للعرب » نكتبها ! وجيراننا اليهود يطلقون اسم « فيكتور » — أى منتصر على كل طفل يولد لهم فى ذلك العام ١٩٤٨ والطفلة « فيكتوريا » — « شيلا » و « ليلا » و « إستر » فى مثل عمرنا ويسكنون تحتنا يغيظوننا بـ « فلسطين لليهود » وتقرر فاطمة أن نضربهن ولكن أمى تمنعنا لأن « النبى أوصى على سابع جار » ! ثم يختفى جيراننا اليهود مسافرين : عائلة فى إثر أخرى إلى فلسطين المحتلة ونحن نغنى مع أحمد خيرت فى حديث الأطفال « فلسطين لبيك نحن الفدا .. وهذى الجحافل شحب الردى ! ».

ننتقل إلى المدرسة الثانوية وإلى هذا المنزل « الجديد » « وسناء البيسى » لازالت صديقتى تحكى لى فى هدوء وصوت خافت مايضحكنى ويؤدى بى إلى العقاب عن عمها الذى كان قد حصل على لقب « بك » ويخاطب نفسه قائلا : « وقال لى عقلى يابيه ! » وتظل إلى جوارى خمس سنوات أخرى تسبب لى العقاب بينما يحمد لها الجميع هدوءها وأدبها . وتطول قامتها حتى تصبح طولى وتتحول إلى فتاة رقيقة «.الظاهر » ! وجهها مازال أبيض مشربا بالحمرة وعيناها صغيرتان لكن حواجبها لم تعد كثيفة وتظل تحفظ كتب التاريخ وتملأ ورقة الرسم فى جمال وتنافسنى فى موضوعات الإنشاء فى اللغة العربية وتختفى تحت الدرج طيلة إلقائى للشعر ومجادلاتى مع المدرسين فى الأدب والسياسة .

وحقوق المرأة وخطابتى : « كم أتمنى من شغاف قلبى ومن صميم فؤادى أن أسمع صوت المرأة المصرية – يجلجل فى ساحة البرلمان مدافعاً عنها وعن حقوقها ! » – (والحمد لله نلت ماتمنيت وسمعته – صوت المرأة المصرية – مجلجلا كذلك فى زنزانات السجن واستدعاءات التحقيق .. فأى هناء !) –

●

من هذه الشرفة شاهدت ألسنة اللهب قبل أن تأتى أمى من الخارج لتقول: إن القاهرة تحترق لكنها والحمد لله كانت قد تمكنت من استلام نظارتى الطبيّة التى استخدمتها لأول مرّة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ورأيت ألسنة اللهيب بوضوح ! وفى الصيف من نفس العام تمر مواكب « أبطال الثورة » من تحت شرفتنا ونقف أنا وأمى وأختى بألوان أحمر وأسود وأبيض لنمثل علم الثورة والفرح يدمع أعيننا وشارع العباسية عريض ومصقول وأرصفته واضحة وإسرائيل عمرها أربع سنوات فقط !

●

عام ١٩٥٤ تقدم « سناء البيسى » أوراقها بكلية الحقوق لتكون مثل والدها الذى لم يرزق بصبيان لكنى أمر عليها وأخبرها بافتتاح قسم للصحافة جديد بكلية الآداب . تحول سناء البيسى أوراقها لتصبح معى بقسم الصحافة وتأتى معها بسناء فتح الله التى تسحب أوراقها من كلية العلوم وتظل « سناء فتح الله » طيلة دراستنا للصحافة تتعامل معنا على أساس أنها « سينتست ! » وتتجمع « شلّة » شابات من « العباسية » نركب ترام رقم ٣ إلى الفجالة وهناك نأخذ تراماً آخر رقم ١٥ إلى جامعة القاهرة وكان هذا يستغرق منا ساعة كاملة من الزمان من العباسية إلى الجيزة ! وكنا نبتسم ونحن نحلم بالمستقبل و« سناء فتح الله » تلقى علينا محاضرة عن مستقبل التقدم العلمى وتؤكد لنا أن « العلم » سوف يلغى الترام وسوف يختصر المسافة من العباسية إلى الجيزة فى أقل من عشر دقائق ! ونواصل مشوارنا فى شارع الجامعة العريض الفسيح المصقول وحدائق حديقة الحيوان عن شمالنا وحدائق الأورمان عن يميننا ومحطة الترام خلفنا وقبة جامعة القاهرة وبرج ساعتها شامخينَ أمامنا تؤكدان حلم « العلم » وشوقنا إلى لحظة أن نتمكن من بلوغ الجيزة من العباسية فى أقل من عشر دقائق ومانشتات الصحف لاتكتم السر : إن هذا اليوم غداً !

●

أنقل ناظرى من الأفق المسدود بالأبنية المتنافرة إلى طابور السيارات والأتوبيسات الواقف فى اتجاه واحد نحو العتبة مرصوصاً يملأ عرض شارع العباسية – عزيز القوم الذى ذل – « من الذى كان » رصيفا إلى « الذى كان » رصيفا آخر : حتى مجرى شريط الترام فى وسط الشارع دخلت فيه السيارات وملأته . وإذا كانت هناك حركة عرضية فى الشارع فإن الحركة الطولية واقفة تماماً من أول ميدان العباسية عن شمالى حتى ميدان عبده باشا عن يمينى وحيث يمكن لبصرى أن يمتد عبر نظارتى الطبيّة !

كم ساعة يأخذها « التاكسى » الآن من العباسية إلى الجيزة ؟ وكم جنيها ؟

●

يظل أمامى بشارع « يشبك » بيتا جميلاً صامداً معتنقا جماله كعقيدة مقدسة لايتخلى عنها – رغم ما أصاب شارع « يشبك » الأنيق من هدم ومن إذلال – لم يبن أصحابه الدكاكين الدميمة فى حديقته للاستثمار ولم يصعدوا فوق البناء بطوابق زائدة سادة متنافرة : بل يقومون كل حين وحين بطلائه باللون الوردى الأثرى الجميل ويجعلون الشبابيك خضراء .

●

أغلقت الشرفة وأدرت رقم تليفون « سناء البيسى » وقلت لها : « مكتئبة ياسناء : لن أكتب ! » فقالت برجاء أربعين سنة صداقة : « لأ ..لأ .. لازم تفضلى تكتبى ! »

فصيفصاء ظاقرة !

استيقظت من نومى فى جوف الليل على صوت دق وقرع وجلبة شديدة وبعد أن هدأ روعى ، وتأكدت أن الضجيج لايمس بابى ، بدأت أتبين أن « شغل » ما يتم بالشارع .

نهضت وفتحت شباكى المطل رأسا على شارع العباسية . وجدت نورا هائلا والإضاءة مركزة فى الشارع الممتد أمامى – (ذلك الشارع الجميل سابقا والعمودى على شارع العباسية) – وتبينت وجود عمال ووابور زلط – (هذا الوابور العزيز الذى طال شوقنا إليه وصار جزءا لايتجزأ من أحلام اليقظة شبه المستحيلة لدى المواطن المصرى ، السائر على قدميه أو الممتطى ظهر دابته السيارة أو التاكسى !) –

قلت : رباه اليوم عاد وابور الزلط كأن شيئا لم يكن ! أأصدق أم لا أصدق ؟ هل أقفز إلى النتيجة وأزعم أن عمال + وابور زلط + إضاءة ليلية + ضجيج سرق من عينى النوم = رصف الشارع المهدم بالإسفلت ؟ .

نعم . نعم . قلت وقلبى – والله العظيم – يخفق فرحا كالمراهقات حين يمسهن الحب – (التافهات يفرحن بالحب لأنهن لم يجربن بعد الفرح الأعمق : رصف شارع مهدم ! أجل ! أن رصف الشارع الذى يلوى قدمى كلما سرت فيه أهم وأبقى !) . أغلقت النافذة وعدت أكمل نومى سعيدة تداعبنى الخيالات الجميلة عن شوارع حريرية وطرقات لاتسبب الانزلاق الغضروفى .

كنت دائما حين أتكلم عن القاهرة ، أمام أصدقائى من أشقائنا العرب ، « انجعص » وأرفع رأسى مسترسلة فى هيام عن تاريخ رصف شوارع مصر المحروسة ، وعلى وجه الخصوص شوارع القاهرة والاسكندرية ، وكيف أنه بدأ ، مع حفر المجارى ، منذ أزمان بعيدة حين لم يكن أحد من بلدان الشرق الأوسط أو حوض البحر الأبيض يعرف معنى حفر المجارى وضرورة رصف الشوارع وترتيبها بالإسفلت . وكنت أعتبر أن هذا الأمر – (وليس لبس المايوه والمينى جيب أو حرية احتساء الخمر) – أحد شواهد المدنية والتقدم الذى كانت مصر دائما سباقة إليه . كنت أعتبر هذا الأمر – (وليس بناء الأوبرا) – أهم إنجازات الخديوى إسماعيل . وحينما احترقت الأوبرا – (أقول احترقت على أساس أن الأوبرا هى التى ولعت فى نفسها لأننا لم نعرف إلى الآن من الذى أحرقها ولماذا !) – كان عزائى أن طرقات مصر مازالت معقولة الرصف واضحة المعالم وأنه لايجرى بها مجرى سطحى للمجارى كما هو الحال فى عواصم أخرى .

« ومد خطوط السكك الحديدية ، وقام بفتح طرقات جديدة ممهدة معبدة ... الخ » أليست هذه أهم فقرة كنا نستذكرها ونحن ندرس إنجازات عصر من العصور ؟

وكنت قد لاحظت مؤخرا أننى حين أسير لاتحضرنى سوى جملة واحدة من كل مأثورات الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ألا وهى :

« لماذا لم تمهد لها الطريق ياعمر ؟ » أرددها وأنا صاعدة ميدان العباسية ، وأنا نازلة ميدان العتبة ، وأنا آتية من موقف التاكسى أمام دار الشفاء – (دار الشفاء مستشفى من أهم مستشفيات مصر تحيطها المجارى والقمامة من كل مكان دائر مدارها !) – مارة غصبا عنى خلال شارع كمال – (الذى يفزع سائقو التاكسى من اسمه كما تفزع نساء مصر من سرطان الثدى) – أقولها – أقولها كلما سرت فى أى طريق بالقاهرة الواسعة المليئة بالطرقات – (وأنا أسير كثيرا وأركب الترام ، وأدعو الله ألا يخرج لنا فنان فى وزارة النقل والمواصلات ويقترح إلغاء خطوط الترام الباقية من زمان الرحمة ، فالترام ، رحماكم ، صار ملاذى وملاذ الكثيرين حين تعيينا الحيل فى التنقل) .

أتأمل الجملة وأنا أحسد « البغلة » المحظوظة التى شغلت بال الخليفة عمر ، رضى الله عنه ، وخشى ، وهو فى المدينة المنورة ، أن تعثر تلك « البغلة » بالعراق فيسأله عنها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة : « لماذا لم تمهد لها الطريق ياعمر ؟ ! . »

« الحمد لله الآن ! » ، قلت وأنا استيقظ فى الصباح ، « سأخرج وأعود عن طريق الشارع المرصوف وقد ارتفع مقامى إلى مستوى بغلة سيدنا عمر وإن شاء الله لن أعثر بالطريق بعد اليوم ! » .

خرجت والأمل يحدونى ، وبثقة المستيقظين ليلا على ضجيج رصف الشارع قلت لسائق التاكسى أن يتوقف عند ناصية الشارع المرصوف .

آويلاه – (كما يغنى ناظم الغزالى) .

« دبدبت » بقدمى فى غيظ وأنا أسمع قلبى الخافق غضبا :

« الشارع كما هو » ؟

لم تكن رؤيا منامية أنا متأكدة مر من هنا فى جوف الليل وقت السحر وابور زلط !

ولزيادة التأكد توقفت وسألت بواب العمارة – (الذى يبيع الجوافة والبطيخ والعنب بأسعار مضاعفة باعتبار أن التجارة عمل حر يساعده إلى جوار عمله الأصلى .) –

– « ألم يمر بالليل هنا وابور زلط أسمر ؟ » .

– « نعم نعم ! »

– « وماذا كان يفعل ؟ »

– « يبلط الشارع » !

إذن فأنا متملكة لحواسى ، وإذن لافائدة : حتى رؤية وابور زلط يعمل لم تعد تعنى شيئا فاكظم أحلامك ياقلبى وأسلم أمرك لله الذى سوف يسألهم : « لماذا لم تمهدوا الطرق للشعب المصرى . »

مع الإرهاق وخيبة الأمل بكيت بكاء لم أبكه حتى من أجل تليفونى الذى حصلت عليه أبكما بعد ١٢ سنة من الانتظار فئة ممتازة صحفيين !

الحفر : هى الحفر . والإ سفلت الجديد طبقة مفروشة بمزاح فوق النتوءات الأصلية وفوق الأتربة المتراكمة . وتنتهى طبقة الإسفلت تماما عند حد بركة المياه التى تغطى الجزء الأخير من الشارع أمام المقهى عند ناصية التقاء الشارع بشارع العباسية الرئيسى الذى يسير به الترام حفظه الله ! .

وقفت – كالعادة – أكلم نفسى بصوت عال وصوتى محتقن :

– ولماذا لم يصلوا بالإسفلت على الأقل لردم هذا الجزء ؟ »

وجاءنى صوت مرح من مقعد بالمقهى :

– « خايفين الإسفلت يغرق أو خايفين يتبلوا ! »

بعد أيام وجدت أن ماحدث للشارع الممتد أمامى يحدث لبعض الشوارع الأخرى – (إلا شارع كمال المنكوب الذى يقع على جانبيه مستشفى دار الشفاء وملحقها) – وكنت واقفة أشترى بعض أشيائى ، فقلت لصاحب الدكان : « أقدم التهانى على رصف الشارع ! »

فإذا به ينفجر : « ياريت بقى كما كان ! »

وبدأ يتكلم عن أشياء لم تكن فى حسبانى ، لأنها والحمد لله لاتمسنى ، فأنا أسكن بالدور الخامس ولايمكن أن أشكو مما يشتكى منه . صحيح أن ساقى قد تنكسر وأن رأسى قد يشج لكن ، والشهادة لله ، لاشىء أكثر من ذلك فلا يمكن أن أشكو مما يشكو منه صاحب الدكان أو الساكن فى الدور الأرضى ، ناهيك عن ساكن تحت الأرضى !

أشار صاحب الدكان : « انظرى ارتفاع الرصيف الجديد » . نظرت إلى ارتفاع الخيط والرجل يكمل : « عندما يكتمل هذا الرصيف سوف يغلق جزءا من مدخل دكانى سوف يغلق جزءا من مدخل هذا البيت إنهم يضعون طبقة إسفلت فوق الطبقة القديمة التى كانت موضوعة فوق طبقة سابقة وهكذا يرتفع الشارع فيرتفع الرصيف حتى يعلو عن مستوى مدخل العمارات والدكاكين وأنا ليس من حقى تعديل ارتفاع دكانى لأن رخصة الدكان مرتبطة بارتفاعات ومساحات محددة ليس لى حق تغييرها إلا بطلب جديد ، وإذن جديد ودوشة جديدة . حتى البالوعات تم فرش الإسفلت فوقها ، حتى فوق الصنبور الذى كان هنا جوار الحديقة كان لابد من نزع الطبقة القديمة والعمل بعقل وترتيب ، كان لابد ...
وكان الأصول وكان المفروض .. »

دوار . فانا ماكنت أحسب أن أغرق فى الإسفلت إلى هذه الدرجة . صحيح أننى كنت أتشوق لوابور الزلط لكن :
ليس لهذه الدرجة !
قال : « ألست كاتبة ؟ إذن اكتبى عن مشكلتنا ! » .
قلت : « نعم ولكن : المفروض أن أكتب فى المسرح ! » .
قال بازدراء : « مسرح ؟ ! وأشاح بوجهه كأنه يقول : « اتفضل ياعم تقول مسرح ! » .

●

انصرفت من أمامه اتكفأ وذهنى منشغل تماما فى ارتفاع الأرصفة وتذكرت أننى كتبت مرة « فسيفساء ذاكرة » عن عباسية « زمان » وخطر لى تساؤل : ماذا لو كتبت عن عباسية « الحاضر » ؟ لاشك أنها تكون : « فصيفصاء ظاقرة » ، ذلك لأننى كلما تجولت فى أحوالها تحتقن لوزتى وتتلوى أسنانى تحت لسانى حين أنطق ، حتى أخالنى من مذيعات التلفزيون !

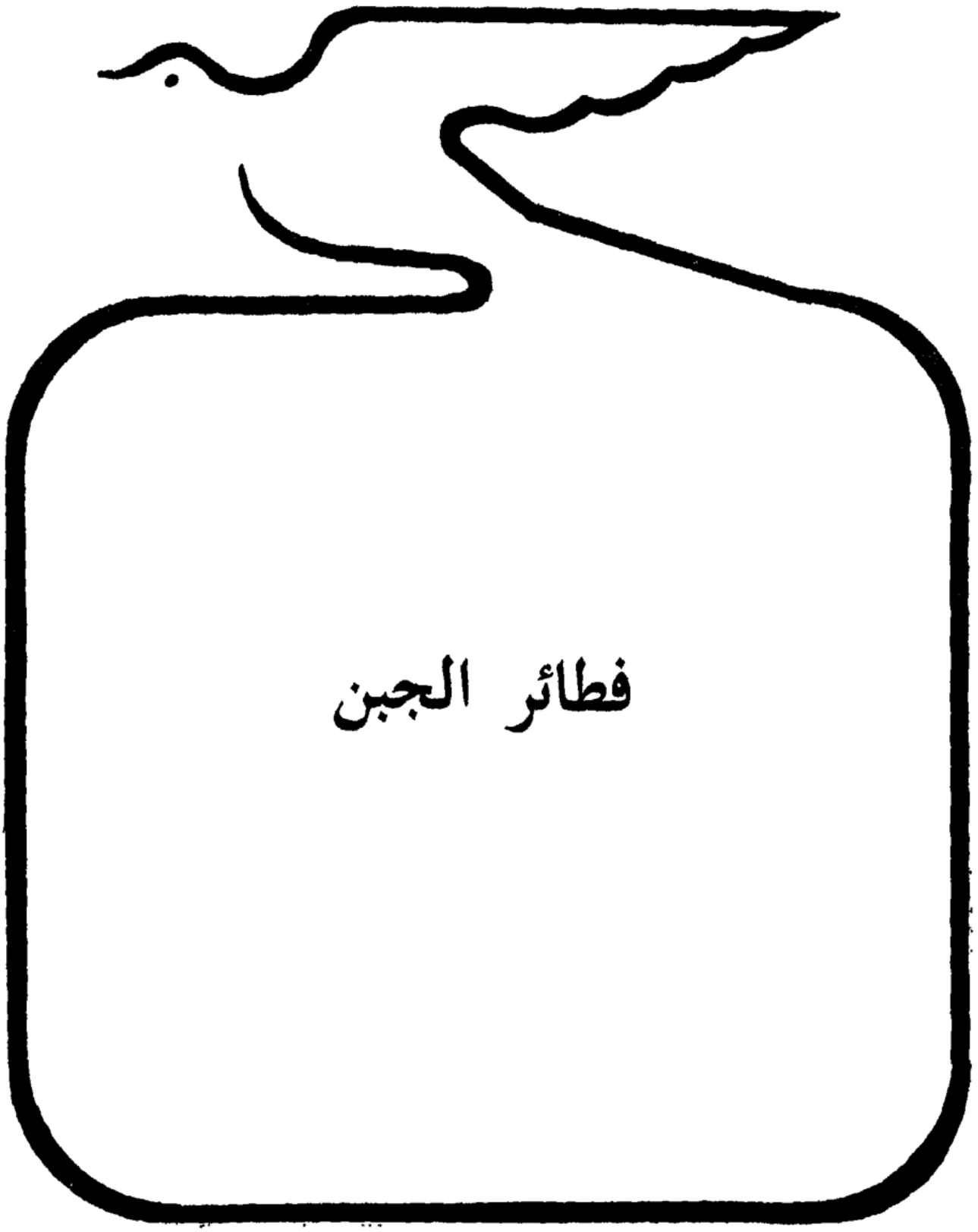

فطائر الجبن

قفزت من السرير عندما دقت الساعة الخامسة صباحاً وأنا متجهمة وأنظر فى تحد مباشر أخزق به عينى ثعبان شرس ضخم اسمه الاكتئاب التف حول عنقى عشرة أيام كاملة . دفعته إلى الوراء فشعرت على الفور بقوة عضلات رأسه وهو يقاومنى فى محاولته التقدم إلى الأمام أو الثبات فى موقعه على الأقل . لكننى كنت مصممة على دفعه واستطعت بالفعل أن أقطع طريقه إلى صنبور الماء لأتوضأ . تذكرت وأنا أنظف أسنانى أننى رأيتنى فى النوم أنظف أسنانى فانبسطت أساريرى لأن هذا خير . أطلت سجودى حتى شعرت أننى محمولة على هودج فوق سفينة تهدهدها صفحة بحر هادىء . لبرهة شعرت أننى على ذراع أمى فطلبت لها الرحمة وطلبت أن أرى الحق حقا وكان ذلك كافيا لكى تهطل مقلتاى مخزونهما مدراراً .

فرغت من مسح حذاء ابنتى فى منهجية تعلمتها بالمران وكنت قد أعددت ملابسها على منضدة المكوى وفق أولويات الارتداء ولم يبق سوى أن أبتكر هدفاً مهماً لها يقنعها بأن هناك سببا وجيها للاستيقاظ غير الذهاب للمدرسة فقلت لها : « سأدهن شعرك اليوم بالجاز ! » فانتفضت جالسة وعلى وجهها

سعادة من سيدخلون دنيا جديدة : « صحيح ؟! » فأومأت برأسى فى حنان من لايمكن أن تبخل على ابنتها بشىء.
قالت : « دكتور التلفزيون يقول الخل مفيد ! » .وأنا أودعها على الباب : « عندما تعودين سأدهن شعرك وسوف تعرفين ، والآن قولى : توكلت على الله . ».

هبطت الدرج وحبل الصوت ممتد بيننا : « خلاص ؟ » ، « لسّه ! » ، « خلاص ؟ » ، « لسّه » ثم « خلاص ! » نهائية تعنى أن أجرى إلى النافذة أنتظر معها حتى تأتى سيارة المدرسة القادمة من جسر السويس لتأخذها من العباسية وليس بالسيارة أحد وتلف بها : باب اللوق والمبتديان وجاردن سيتى وميدان التحرير وميدان طلعت حرب ومصطفى كامل والأوبرا .. الخ – ليس هناك مكان أمر به مع ابنتى إلا وتقول لى : باص مدرستى يأتى هنا ! – ثم تعود بها لمصر الجديدة وهى مكتظة يجلس التلاميذ فوق بعضهم البعض ، ومنهم من دفع ١٥٠ جنيها ومنهم من دفع ٢٠٠ جنيه ، وترمومتر الارتفاع يقفز الجنيهات سنويا خمسين جنيهاً فى القفزة الواحدة ، والأمر اختيارى لأولياء الأمور وهم أحرار : إما الدفع الفورى الكامل لما تقرر أو : « براحتكم نوقف خدمة السيارات ! »
تلوّح لى وألوّح لها:« فالله خيرُ حافظا وهو أرحم الراحمين » حتى تغيب السيارة فى مداخل الطرقات فيحط على رأسى طائر القلق – وهو خليط من الغراب والبومة والنسر – : كيف أتركها هكذا تمخر بحر الظلمات ؟ « ياشيخة أنت مؤمنة ! » أصيح بوجهى لأهش الطائر البغيض وأتلفت فأجد الثعبان فى غرفة مكتبى فاغراً فاه جوار قلمى الرابض فوق أوراقى وأنا مندهشة : ترى من كان يكتب ؟

أتجنب القلم والأوراق وأتسلل خارج الغرفة فى حذر شديد . هرباً منه جمعت بالأمس كل الأشياء الممزقة وجلست أعالجها بماكينة الخياطة التى تركتها أمى . وكلما أدرت عجلتها تصورتها وهى تجلس مبتسمة مزهوة لأنها تملك ماكينة خياطة أصيلة . تنظفها وتلمعها وتلبسها بياضتها الخاصة وتغضب لو رأت عليها كوباً أو شيئاً مبللا . تبجيلا لذكرى أمى أحضرت للماكينة « كاوتش ماكوك » و « سير » وزيتا وفوطة صفراء خاصة لتلميعها . حين وجدتنى ابنتى أدير الماكينة اندهشت فى فرح وسألتنى فى فخر : « ماما لماذا لاتصبحين خياطة ؟ » . تكره أن أكتب ، وتكره أن أقرأ ، وتكره أن أستمع إلى نشرة الأخبار – خاصة من إذاعة لندن لأن بعدها أضواء ! – وتكره حديثى فى « شئون الساعة » !

هاقد جلس الثعبان فى مكتبى وأفرخ بيضه جوار قلمى فماذا أصنع اليوم ؟

أمسكت بعصا الممسحة وجردلها المتطور الذى يمكننى من المسح دون انحناء وعصر الممسحة من دون أن ألمسها – الهدية التى طلبتها من صديقتى فى عيد ميلادى مع زجاجة « ديتول » كبيرة الحجم مع مبيدات قوية المفعول لكنها ليست بقوة « البايجون » . هل تكلم أحد عن أزمة « البايجون » واختفائه من السوق ؟ ياإلهى : ماذا أطعم صراصيرى ؟! – سكبت كمية كبيرة من « الديتول » عند باب شقتى وفى أركان الطرقة الخارجية ورحت أمسح بإيثار مبالغ فيه من أمام شقق الجيران وأنا أردد :

« إماطة الأذى عن الطريق » ، وحين تعبق السلم برائحة « الديتول » أغلقت الباب وجلست أقول : « أنجزت » !

لم يكن الأمر سهلاً لكننى انتهيت من قراءة صحف الصباح الثلاثة وخرجت بقصاصة واحدة مفيدة عن كيفية عمل « فطائر الجبن.» السمن والجبن والبيض والدقيق والخميرة : سهل كله إلا « فرن متوسط الحرارة » . دائما فى مخيلتى فرن بوتاجاز ينفجر بوجهى . أهش الطائر من فوق رأسى واتخذ الاحتياطات الواجبة وأشعل الفرن بأحاسيس بطولية . حتى فطائر الجبن تحتاج شجاعة . والآن : ضعى واخلطى وامزجى وانخلى واعجنى حتى تصير العجينة يابسة . متى تماما تمكن الثعبان من غرفة مكتبى ليقبع هكذا ؟ ، التلفزيون فى غرفة ابنتى وعلاقتى به شبه منتهية ، وحتى هذه الكلمة التى طاشت من دكتور محمد عنانى عن اللغة العامية وضرورتها فى ترجمة شكسبير إذ أن اللغة الفصحى فى رأيه – رأى عنانى لاشكسبير – مازالت تعتمد على مجموعة ألفاظ جاهلية عفى عليها الزمن ، حتى هذه الكلمة العبقرية للدكتور عنانى جابهتها بسماحة الإسلام ودعوت لصاحبها بجائزة من جوائز السلام !

متى إذن متى انطلقت هكذا أتدحرج كالكرة فوق غيط فسيح تسوى بتراب الاكتئاب وتمهد فى ميل محكم نحو فوهة البئر أو فم الثعبان ؟

بلعنى الحوت كثيراً ، لولا أنى كنت من المسبحين ، لكن من يُقارن الحوت بالثعبان ؟ ومن يُنبئك عن جبن الفطائر كمن فقد ؟

كان الشاعر الإنجليزى « ت.س.إليوت » من عمالقة المكتئبين . فقدت زوجته الأولى « فيفان » عقلها ووضعها فى مصحة وكان يرعاها بدأب ويعود إلى بيته يكتب عن « القطط » . لايخاف الثعبان شيئاً كما يخاف القطط . أحيانا كنت أتهم « إليوت » بأنه السبب فى جنون زوجته ، يؤكد ذلك أن اسمه بين أصدقائه كان « بوسوم » ويعنى « المستعبط » – أو باللفظ الجاهلى يعنى : الذى يدعى عدم الدراية بما يدور ويكون هو محرك الدوار كله ! – الذى يغفر لإليوت عندى أنه كان حاد النكته ، حاد الذكاء ، حاد السخرية ، شديد الشبه بالأطفال والقطط بخيرهم وشرهم ولذلك لم يكن ممكنا أن تكرهه أبداً كما لم يكن ممكنا أن يترجمه أكاديميون ثقلاء ! – أشد حالة يصير بها الأكاديميون ثقلاء عندما يتبسطون ، والأكاديمى ليس بالضرورة « عالم » أو « بحاثة » إذ قد يكون « جامدا » و « منغلقا » و « مستثمراً » ! –

من فرط ولائى لإليوت وليس بسبب الضجة أو الإعلان كان حرصى أن أشاهد العرض المسرحى الغنائى الراقص الذى اسمه « قطط » والمستند إلى « كتاب بوسوم العجوز عن القطط العملية » . وأخذت ابنتى عبر لافتات تقول أن مسرحية « قطط » أعظم حدث مسرحى بلندن . كان السلم الكهربائى الأسود يرتفع بى بما يوازى صعود ثلاث طوابق فى بناء مسرح « لندن الجديدة » ، والجدران وكل شىء يغلب عليه اللون الأسود الذى تبرز منه عيون قططية ، والمكان « وست إند » منطقة المسارح التجارية التى توازى فى نيويورك « برودواى » وفى باريس « البوليفار » . والمسرح يعبر عنه اسمه فهو أول مسرح تجارى يتم بناؤه منذ سنوات وتم افتتاحه فى ٢ يناير ١٩٧٣ . وضع تصميمه « شين كيني » – الذى له موقعه المهم عند من يهتم بمصممى المسارح فى العالم – ليكون « مسرح المستقبل » ، وأدخل فيه الكثير من

ابتكاراته ومنها أنه جعل ثلث مساحة المسرح على قاعدة متحركة دائرية ، باتساع عرضى طوله ٦٠ قدما ، تشمل الخشبة والأوركسترا وجزءا من مقاعد المتفرجين التى تتحرك بهم مقاعدهم وهم جلوس إن يساراً أو يمينا كيفما شاء المخرج ! والحمد لله كان مقعدى خارج المنطقة المتحركة فأنا لاأحب أن تكون حركتى خارج إرادتى !

كان معئ عشاؤنا فقلت لابنتى مازحة : « نأكل فى الاستراحة ونعطي ماتبقى للقطط ! » ولكن ماإن انتهى القسم الأول من العرض حتى شعرت أن قططه لايرضيها نوع طعامى . إنها قطط تثير التقزز وتبعث فى نفوس أمثالى الملل . جهد ضخم وإنفاق هائل جذب معظم راقصى لندن الذين تركوا كل ارتباطاتهم وتفرغوا للعمل فى هذاالعرض منذ تاريخ افتتاحه ١١ مايو ١٩٨١ . ومنذ ذلك التاريخ وهم يبرزون كل ليلة على خشبة المسرح الدائرية هذه كأنهم رءوس الشياطين . قالت لى ابنتى – ونحن تعودنا أن نربى سويا القطط ونحبهم – : « لايشبهون القطط » .

القطط نظيفة وخفيفة الظل وجميلة فى كل أحوالها أما تشكيلات الرقص بركام الأجساد المتجمعة على المسرح فلا توحى بالنظافة أو المرح ، ناهيك عن الجمال وعن الشعر وعن « بوسوم » إليوت العجوز الذى إن غابت عنه كل الصفات فلا يمكن أن تغيب عنه الفكاهة وإن خرجت من الحزن والطيبة ، وإن غلّفها الشر الطفولى والزهد ، وإن طفا على سطح بئر الاكتئاب .

كان « إليوت » يعرف نفسه قائلا : « إننى كاثوليكى ، ملكى ، كلاسيكى ! » وحتى إن كنت ترفض إطاره هذا فلا يمكن أن تقبل بديلا عنه ذلك الكم المخيف من السوقية والتبذل ليكون وعاء لكتاب « بوسوم العجوز » المكتئب فى هدوء ومرح وطفولة . لكنها « الست هانم » – سكرتيرته « فاليرى » التى تزوجته فى أخريات أيامه – هكذا رضيت أن تبيع « إليوت » الذى عاير حياته – كما قال – بملاعق القهوة بعد أن عرف « ديّة » الأيام كلها : صباحها ومسائها وبعد ظهرها ! ولاشك أنه أعلن النتيجة على لسان « سيليا » بطلة مسرحيته « حفل الكوكتيل » وقال مامعناه:إن الحكاية كلها لاتساوى ثمنها ! غير أن المسرح فى لندن صار سلعة أساسية فى تجارة السياحة وعندما يصير الأمر كذلك فإن النتيجة فى أغلب الأحوال لاتكون طيبة للناس الطيبين .

الفطائر خيبت أملى . كنت أظنها ستخرج من الفرن « نافشة » فإذا بها منبطحة . سوف تأتى ابنتى وتتذوقها وتقول:إن فطائر جارتى أفضل !

أتصل برئيس التحرير لأعتذر : « لم أفلح فى الكتابة عن القطط ! »

رد بحسم سريع : « اكتبى عن الكلاب » !

فهل ترانى أفلحت ؟

وتريات :
وميض الاكتئاب

استدعى الصمت لأوجز فيه معنى الحياة . تلقفتنى الثرثرة فاستسلمت لوميض الاكتئاب ، وكان المذاق شهيا ، فعرفت أنى فى خطر . مللت التكرار ، فياليت الصمت يستوعبنى كالقصائد المرتجلة .

كل الحيل الإنسانية بدت لى محلولة الألغاز ، فكرهت فراستى وعرفت كيف تكمن السعادة فى الغباء ولماذا يبدو البلهاء أكثر حكمة واستقرارا ! وعرفت لماذا يقطرنى القلق حتى فى اليقين .

يستقر الصخب على أن الفتنة جوهرها الإرهاق ، كما كان الإلحاح دوما جوهر الملل . وفى الصمت ، حيث تلتئم الجراح ، ينبثق ينبوع الخشية ، أن تأتى الراحة عكس نتائجها ونراها :

الوجه الآخر للعنت !

فأين المفر ؟

الحلم . الرؤيا . الكابوس .
فى قيعانها يصطدم الفرار محبطا ونقول :
« فى اللاوعى انكبت الأنين ، وقد سجنته الطحالب وأهالوا عليه الوقار ! »
فأين منى بهجة فى النواح ، تمتشقها النفس اللاهثة ؟

أى النوافذ تتسع لإطلالة رأس متورم ؟ أى الشرفات يمكن أن يدرج عليها الياسمين معتنقا الزنبق من دون مزاحمة اللبلاب ؟ وأى الردهات تستقبل آهات يكتمها القلب المتضخم :
آ ـــــــ

رؤيا :
العجلة الداخلية

(١)

[ساحة لاتفصح عن دلالة محددة : قد تكون فناء سجن أو فناء معسكر أو فناء لأى تجمهر ما . الفناء مليء بالناس : أيضا غير محددين : خليط : رجال ونساء : يمكن أن يكونوا مثقفين وسجناء سياسيين ، ويمكن أن يكونوا من عامة الناس مجتمعين بسبب مولد أو مهرجان أو معسكر تجمع شعبى . يبدون جميعاً متساوين فى الأهمية وفى الحقوق والواجبات ، لكن هناك الشعور بأن مجموعة من بينهم هى المسيطرة فى الحقيقة وهى التى تملك تحريك الدفة وحدها بإرادتها الخاصة . وهى فعلاً مهيمنة بشكل كامل إلى درجة البراعة فى إخفاء حقيقتها المهيمنة . وهى فعلاً ناجحة فى الاختفاء الكامل بحيث لايمكن التعرف بسهولة على أفرادها أو أعضائها وهى قادرة على ترسيخ الشعور لدى الجميع بأنهم أحرار يجتمعون ويتفرقون ويتصرفون وفق إرادتهم وأنهم يمرحون تحت حماية طقس ديمقراطى خالص .

(٢)

[لقطة شاملة تؤكد الانطباع السائد بالمساواة بين الجميع . حيث لاعلامات مميزة ولا وجوه بارزة على نحو خاص . تدريجياً تتحدد اللقطة : تقترب وتشمل قطعاً جزئياً من التجمهر يتبين فيه وجهى ووجه إمرأة تبدو فى الثلاثين أو فوقها قليلا : كستنائية الشعر المصفف بعناية مع درجة احمرار زائدة فى بعض تموجاته بسبب استعمالها للصبغة . منمقة الملبس والملامح : تعطى انطباعاً مقصوداً بأنها متحضرة وتعرف اللياقة والأصول . تبدو ودوداً وطيبة ، لكن تحت طيات عينيها تكمن قسوة باردة . تبدو فى اللقطة كذلك وجوه غير محددة تتناول طعاماً بلذة فائقة : الطعام شىء أبيض مفروك مطبوخ بالخل والثوم ويأكلونه بالملاعق من أطباق مقعرة مثل أطباق الكشرى اللذيذ فى مطاعم القاهرة المتخصصة فى ذلك .

اللقطة مستمرة . لكنها تزداد تحديداً ويشحنها شعورى الصامت الداخلى بالتخوف من المرأة ذات الشعر المصبوغ . يتعاظم خوفى عندما تنظر إلى بنظرة لاتستغرق نصف ثانية : ويشملنى خاطر فورى يتحول إلى يقين بأنها واحدة من الجماعة المهيمنة وهى مكلفة بمراقبتى وهنا يتحول تخوفى إلى مقت شديد يتبدى على وجهى على الرغم منى . فى اللحظة ذاتها يبدو أن المرأة قد أدركت مايعترينى فتنظر إلى وتبتسم محاولة أن تطمئننى فيزداد مقتى لها . طوال هذا التحول الداخلى الصامت الذى يشغلنى : ألاحظ عملية الأكل المستمرة والتى تتم بشهية وتلذذ كبير يغمر الآكلين . فجأة يقول لى أحد الآكلين بتلقائية وكرم :

– ألا تتناولين معنا الغداء ؟

أجيب بمودة وتخوف :

– أخاف أن يكون لحم خنزير .

يجيب الرجل بظرف ورقة بالغة مع تقوى واضحة :

– أستغفر الله العظيم ياشيخة : لحم الخنزير حرام لكن هذا لحم بنى آدم .

فتفلت منى صرخة وأنا أدق صدرى :

– ماذا ؟ تأكلون لحماً بشرياً ؟

وهنا تتدخل المرأة ذات الشعر المصبوغ قائلة – (متخذة أسلوب الإنسان الناضج العلمى واسع الأفق الذى انتهى منذ وقت طويل من مناقشة التفاصيل الصغيرة والذى يجد نفسه مضطراً أحياناً لمناقشة عقول غبية مازالت تتمسك بالشكليات !)

– نعم ! هل ستخرجين ببدعة إن لحم البشر حرام أيضاً ؟

أقول باندفاع وثورة غالبة تلون كلماتى :

– طبعاً ، وأقول بكل ثقة : لحم البشر محرّم دينياً !

ترد المرأة بهدوء وصبر العالم المدرب على مناقشة الجهلاء :

– هاتى لنا آية من القرآن !

أرد بقوة وحماس زائد تغالبه الدهشة لأن علىّ أن أجلب الأسانيد لإثبات بديهية تحريم أكل لحم البشر : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه .. ؟** ﴾

هنا تضحك المرأة براحة من انتصر أخيراً بسلاح أعدائه ومن دون أن تفقد قدرتها على إعطاء الانطباع المقصود بأنها علميّة ومتحضرة وتعرف اللياقة والأصول تقول :

– طبعاً : الميتة والدم ولحم الخنزير حرام ، لايجادل أحد فى ذلك ، لكن هذا اللحم الذى نأكله ليس ميتة : نستغفر الله ! هذا ياسيدتى : لحم ناس ذبحناهم بأيدينا !

(٣)

تتركز اللقطة على وجهى وتعكس حالة جزع كامل وغثيان وأصمت تماماً حين أقرر داخلياً الامتناع عن مواصلة المناقشة . ألاحظ أن الآكلين على الرغم من استمرارهم فى الأكل قد فقدوا جزءاً من شهيتهم كأنه قد طرأ على ذهنهم فجأة احتمال أن أكون أنا التى على حق ويكون لحم البشر محرماً حقاً !

(٤)

اللقطة عامة وتظهر بها المرأة تنصرف عنى باسمة وهى تقول :

– ألم تقرئى أن ألذ لحم مطبوخ هو لحم البشر ؟

أتذكر : قرأت ذلك تماماً منذ سنوات فى مجلة « ريدرزديجست » الأمريكية.

تنتهى مرحلة الأكل تدريجياً ، وأعرف أن الجميع يتهيأ لمرحلة : غلق الأبواب .

أفكر بسرعة : لابد أن أهرب قبل أن تغلق الأبواب .

يقين كامل بأن محاولتى للهرب ستكون محاولة فاشلة فأنا مراقبة والجماعة المهيمنة مسيطرة تماماً لدرجة أنها لاتتدبر أمر الاحتمال بأن هناك من قد يفكر فى الهرب .

اللقطة على وجهى وقرارى نهائى حاسم : سأحاول الهرب مهما كان اليقين بأنى سأفشل .

أجرى وأفلت فى اللحظة التى ينغلق فيها الباب . (الباب ضخم ويشبه باب سجن القناطر للنساء .)

(٥)

طريق مفتوح خلاء .

أجرى . أجرى . أجرى ويقينى الكامل أن يداً ستمتد فى كل لحظة للقبض على كتفى . بعد فترة من الجرى الفزع بلا وعى أتمالك نفسى وأجرؤ على النظر خلفى . لدهشتى أجد أننى نجحت فى الهرب وقد أفلت تماماً من خطر السيطرة علىّ واستعادتى .

(٦)

سوق كبيرة مكتظة بالناس أدخله وأنا ألهث من الجرى والفزع وأبادر أو عابر بالسؤال :

– بالذمة : أليس أكل لحم البشر حرام ؟

الناس مجتمعة حولى وأنا أستفتيهم فى أكل لحم البشر وأندهش إذ أجدهم متفقين معى بلا مجهود :

– طبعاً أكل لحم البشر حرام !

هنا يجىء دورى للتنفس براحة وألتقط أنفاسى . وباطمئنان أشير إلى جهة المكان الذى يأكلون فيه لحم البشر :

– هناك يذبحون الناس ويطبخون ويأكلون لحم البشر !

مجموعة من الناس تأتى معى مستطلعة الأمر الذى حكيت عنه .

نصل المكان الذى كنت به وأنا واثقة أن المرأة عنيدة وقوية ولن تتنازل عن اقتناعها بأن ذبح البشر وأكلهم حلال . أشير إليها وإلى الآكلين مستعدة لمعركة :

– هؤلاء يذبحون ويطبخون ويأكلون لحم البشر بالخل والثوم !

لدهشتى ترتبك المرأة وتتخاذل وتقول :

– غير صحيح .. غير صحيح !

قبل أن أتهيأ لتكذيبها يواجهها الآكلون بشجاعة تأتيهم بغتة :

لا ! قفى !

تتحدد اللقطة على وجوههم كشهود :

– نعم : نحن نذبح ونطبخ ونأكل لحم البشر وافتحوا الثلاجات بالداخل تجدونها مليئة بخزين من لحم البشر المجمّد .

يتولى الناس أمر المرأة واستجوابها ، بينما أنصرف أنا إلى الآكلين وأسألهم :

– هل لاحظتم غيابى تواً ؟

قبل أن يجيبونى يقرع أذنى صوت المرأة حديدياً مع لقطة مكبرة لوجهها وقد اختفت المودة والطيبة وتأكدت فيه القسوة الباردة :

– لقد بحثنا عنك شهرين كاملين !

– من أنتم ؟

– العجلة الداخلية ؟

(٧)

تتركز اللقطة هذه المرة على يديها وللمرة الأولى ألحظ الدائرة وبداخلها المثلثين مَعشقين فى شكل نجمة سداسية داخل عجلة روتارية : نقشا دقيقاً بخاتم صغير فى إصبع المرأة البنصر فى يدها اليسرى !

رأيت فيما يرى الصاحى

وقفت فزعة متجمدة بمكانى أرقبهم . كانوا متشابهين كأنهم نسخ مصبوبة فى قالب واحد : الوجه شاحب ، جامد التعبير ، والرأس بيضاوى صغير ، والجسم نحيل وعليه زى موحد بارد اللون . يتحركون آليا من تحت الأرض ومعهم ذلك المنشار الكهربائى الغريب ، كأنهم دمى بداخلها أحجار بطارية : يغرسون المنشار من تحت الأرض ثم يلتفون معه مُحدثين قطعاً دائرياً لايلبث أن يسقط ، بمن عليه ، قرصاً فى باطن الأرض حيث يتحلل فوراً فى حمض الكبريت .

أزيز المنشار متواصل وهم يتنقلون بسرعة مذهلة مستمرين فى قطع الأرض أقراصاً تتهاوى فى ومضة أمام عينى ليلتهمها حمض الكبريت محدثا صوت شفط حاد وقصير .

على عرق رفيع من عروق الأرض المفتوحة أحاول أن أهرب إلى الجانب الآخر الذى مازالت الأرض به مستقرة . وما أن أنقل خطوتى وأبدأ السير على العرق فى حذر شديد حتى أرى بقعة الأرض التى كنت أقف عليها ، وتركتها لتوى ، تنهار .

أخشى أن أفقد توازنى فأقع فى إحدى الهوتين على جانبى العرق الرفيع . أرفع رأسى وأنظر أمامى حتى تثبت خطوتى وأنا أستعين بآيات من القرآن أقرأها فى تضرع إلى الله أن يساعدنى أجتاز البقعة الحرجة وأنتقل إلى الأرض التى لاتزال متماسكة .

ما أن أجد نفسى على أرضية صلبة حتى أهرع بالجرى إلى ميدان رئيسى وأنا أصيح وأدق الأبواب لأوقظ النائمين :

« – استيقظوا : إنهم يقطعون الأرض هناك بمناشيرهم أقراصاً تسقط فى حمض الكبريت فتحترق على الفور !

أفيقوا : إنهم يتقدمون بسرعة صوبكم ! »

تفتح الأبواب تباعا وألحظ الارتباك على الجميع . يتوقفون عند أبوابهم وينظرون فى نعاس إلى بعضهم البعض :

« – وماذا بوسعنا أن نفعل ؟ »

الأسى يستولى علىّ فأقول فى نفسى :

« – ليس أمامى إذن سوى أن أطير ! »

أمد ذراعى إلى أعلى وأدق الأرض بقدمى حتى أرتفع تدريجياً وأنا أحس بجسمى أثيريا خفيفاً يمكننى من اختراق الجدران فى مرونة ويسر . أنظر من ارتفاعى فأجد المخلوقات الآلية لا تزال فى حركتها الدائبة ، تطل من جوف الأرض ومعها المناشير الكهربائية تشق طريقها ، بلا هوادة ، فى قطع الأرض دوائر تهبط أقراصا إلى هوّة الحوض الكبريتى الملتهب ، بما عليها من عمائر وبيوت وحوانيت والناس بداخلها : مطمئنون إلى أنهم قد أغلقوا أبوابهم جيداً فأخلدوا خلفها إلى الهدوء متصورين أنهم قد وجدوا حلاً نموذجيا لدرء الخطر !

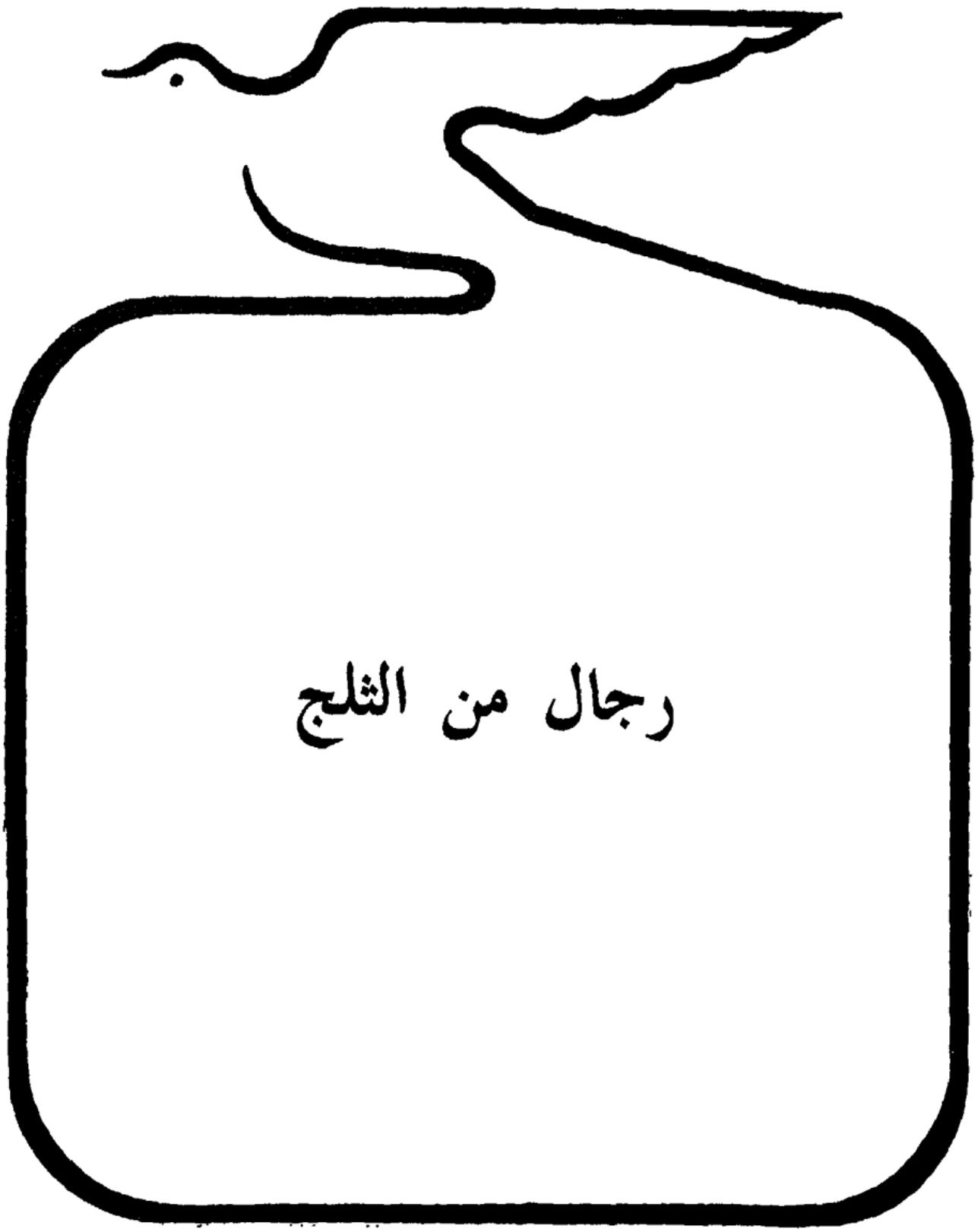
رجال من الثلج

هناك علاقة وثيقة بين الحلم والفيلم السينمائى ، حتى أننى كثيرا ماأخطىء وأنا أروى حلما وأقول « فيلم » حين أقصد « حلم » ولو لاحظت نفسك تجد أنك تروى سيناريو حين تريد إعادة رواية مارأيته وأنت نائم . وكل الخدع السينمائية التى يجهد الفنيون أنفسهم فى ابتكارها تأخذ فى « الحلم » معقوليتها الخاصة وتأتى فى إطاره طبيعية سهلة ومنطقية .

الأحلام بئر ثرى ملىء يغترف منه الفن كما يشاء ويظل ممتلئا كأن لم يؤخذ منه شىء .

الأحلام يمكن أن تكون رؤيا ويمكن أن تكون كوابيس . وإذا كانت الرؤيا المنامية قد سيطرت بقوة على عالم « سترينبرج » المؤلف المسرحى السويدى ، فإننا نرى الرؤيا والكوابيس وقد امتزجت كلها فى عوالم السينمائيين العظام : انجمار برجمان ، فللينى ، انتونيونى . وليس معنى السيطرة أننا نجد هؤلاء الفنانين وقد جلسوا يقصون علينا أحلامهم ، سواء منها الرؤيا أو الكوابيس ، لكن المقصود أنهم تأملوا الإمكانات الموحية ، المستمدة من القدرات اللامحدودة ،

الكامنة فى الأحلام بصفتها واقعا روحيا لاشعوريا ، مماثلا ومتوازيا مع الواقع المادى المحسوس ، الذى نخوضه فى اليقظة : حياة يومية . وإذا كانت أحداث الحياة اليومية مؤثرا هاما فى صياغة الأحلام فإن الأحلام بدورها مؤثر هام كذلك فى صياغة الأحداث اليومية .

أخوض فى نومى تجربة أحس وطأتها عند استيقاظى مرهقة مروعة . كأننى فى مطار مدينة أزورها فأجد أن الناس بها من الثلج : يروحون ويغدون وهم من الثلج ودماؤهم بيضاء . وأقول : رباه إن دماءهم : مياه ! وأخشى على نفسى ، وأنا أحس بحرارتى ، وأبرز جواز سفرى وأثناء تصفح الرجل الثلجى له ، أخرج مصحفى وأرفعه فى مواجهتى كأننى اتقى به عدوى مرض التحول إلى ثلج . ولايكفينى ذلك فأحرك لسانى بآيات أحفظها من القرآن الكريم ، ثم يعلو صوتى رويدا رويدا حتى أبدو كأننى أخطب بآية الكرسى وسورة الإخلاص والمعوذتين ... عندها يتقدم منى أحد عمال المطار ويقول لى « أنت من مصر ؟ ».

فأهز رأسى وأنا مستمرة فى ترديد : « قل هو الله أحد .. » عندها يبتسم لى وهو يهمس : « أنا كذلك جئت من مصر ولكنى أقيم هنا منذ وقت طويل وأننى مازلت أحفظ هذه الآية .. » ثم يرتفع صوته معى « الله الصمد .. لم يلد ، ولم يولد » وإذا بى أكتشف مصريين كثيرين غيره تجتذبهم الكلمات التى تبدو وكأنها توقظهم من سبات عميق ، كانوا قد استسلموا له ، ويأتون نحونا ، وفى امتزاج له رنين سحيق ، يكملون معنا الآية الكريمة : « ولم يكن له كفوا أحد ! » : يقف شعر رأسى وأنا أبكى تأثرا : « لماذا لاتعودون ؟ »

أتسلم جواز سفرى ويبدو كأننى أخرج من المطار عبر قنوات المغادرة التى لاتخلو من مصرى ، مصاب بداء الثلج ، يردد كأنما يتذكر « قل هو الله أحد » !

مثل هذه الأحلام ، التى أخوض تجربتها ، تظل محفورة بذاكرتى ويكون بإمكانى أن أستحضرها بتفاصيلها لمدة سنوات ، حتى أنه بإمكانى استحضار رؤيا رأيتها فى نومى منذ عشرين عاما أو أكثر . ولايهمنى إذا كانت تتحقق أم لا : لأننى أحسها بذاتها شكلا من أشكال الحقيقة تؤثر فى يومى ، وتتحكم فى انشراحى أو انقباضى ، شأنى شأن العامة فى بلادنا الذين يحرصون على حفظ الرموز ودلالتها . ولذلك فإننى أندهش من تصور البعض أن « الرمزية » فن الخاصة من المثقفين ، فالحقيقة التى لاجدال فيها أن « الرمزية » ، – كما كانت دائما – هى الأسلوب الأعمق تأثيرا فى وجدان الناس أو إن شئت : « الجماهير » ! .

فانتازيا من رسائل قديمة

بين صيف ١٩٦٩ وخريف ١٩٧١م

كتبت لك أمس . أو اليوم ، خطابا قررت أن أكتب غيره.يجب ألا نحدق فى وجهنا أكثر من اللازم حتىلانفقدرؤيتنا.إننى أخشى أن ألمسنا حتى لايترهل إشراقنا . قرأت قصيدة جديدة ليسرى خميس أعجبتنى : «أشياء عظيمة لامستقبل لها : زرقة المحيط والسماء ، الشمس والقمر ، عطر زهور الخوخ . الرياح والشجر ، ..
وحبنا الذى لايعرف الكلام بعد » .

هذا حديث الهادئة البرمة ، الجالسة إلى مكتبها فى غرفتها المغلقة ، والجو حار وصوت قارىء للقرآن يأتينى من الخارج ، ومشاعرى حزينه جدا وقلبى ملىء بالوحشة والانعزال والأقلية .

نعم ، أحس بأقليتى ، وغاضبة من العالم أجمع .
أعانى هبوطا معنويا وشعورا ممضا باليتم .
لابد أن تغذينى بحوار أكثر ثقة وأقل مخاوفا .
لابد أن هناك علاقة وثيقة بين الحب وبين الهزات الوطنية .

اليوم ٥ يونيو :

كم مرة مضى وأتى هذا اليوم ؟

عندما بلغ الحنق أنفى تذكرتك وأحسست أننى أمد يدى إليك حتى لأأغرق .

تذكرت أيام تجوالنا الرشيقة العبقة كمثل زهور المشمش ، عندما كنت أتطلع إليك وأجدك شريرا طيبا كتصورى للفتى الذى أريد أن أنجبه . وقتها قلت لك : مشكلة بلادنا أن كهولها أكثر مما ينبغى . قلت لك لو كان الكثير مثلك فتيانا خضرا يبرق منهم الشعر ونفاد صبر الثورة .

كان مونولوجى الداخلى يتمنى لو أن اسمك « جعفر الصادق » أو « العباس » أو « زين العابدين » ولاأدرى من أين جاء لك أهلك باسمك السخيف الذى يدعونك به .

كنت أقول أيضا : بينى وبينك : النار والشوك والبحر .

بشكل ماكنت أحس أنك أغلى من أن تكون لى . لعلى كنت أوثر أن تكون ملكا لذلك « اليوم » : « الماضى » و « الحاضر » و « القادم » .

لعلك لم تكن ترى هذه الأشياء بالتحديد ، لكننى كنت أعلم وأحس أنك بدورك تدرك النبوءة :

إننا لانستطيع أن نعبر إلى أنفسنا ، ولذلك فقد تسلحنا سويا : كل بمصدات رياح خاصة به .

كان ذلك طبيعيا ومطلوبا من نافدى صبر مثلنا . وكنا نعلم أننا لانريد أن نملك ، لذلك فنحن لم نحزن أبدا ، بل استهلكنا كل البشاشة التى لايمكن أن تمنحها طرقات المدينة لغيرنا – (وكانت الطرقات خصبة لأننا كنا دجالين رائعين يمكنهما أن يجدا كل شىء في اللاشىء ، والقمر فى قلب شمس الظهيرة !) .

هل نلتقى ثانية ؟
لماذا لانتقابل بشكل مستحيل ؟

عندما كنت تكذب ، كنت أعرف فى حينها أنك تكذب . وعندما كنت تخطط وتبدو كأنك عفوى : كنت أرى عفويتك المخططة بوضوح : هل نسيت أننا متشابهان : يوحدنا نفاد الصبر ، وتلوننا بشاشة الألم الغائر ؟

هناك برعم صغير ، مثل نبتة السنة اللبنية ، انبثق فى غفلة منا . هذا البرعم الصغير ، جميل بقدر ماهو مفاجأة ، وبقدر مانعرف أننا لن نسقيه – وإن كنا لن نقتله .

سوف يذوى وحده بفعل الظروف الطبيعية ، لذلك فأنا أبش له فى ضيافته القصيرة .

سوف يؤنسنا للحظات فلا داعى للاثقال عليه :
لاداعى لمجادلته والعبث بوجهه لرؤية ملامحه الكاملة .
لولا أننى يجب أن أصمت لأسمعك ، لبقيت أقرأ لك من شعر « لوركا » ومن شعر « محمود درويش » :
« أعرف لحظة أن القمر ، جميل كطلعة وردة ، وأنى وسيم .. لأنى لديك » .

لماذا أكتب بخط صغير ؟
هل أحاول إعطاء التأثير بأن صوتى خافت ؟
أخشى أن أصل إلى نهاية الورقة وأنت محتاج إلى مجهر لتسمعنى .
نعم أحس بسكينة غريبة .

كتبت لك أمس خطابا أغلقته لكننى لم أرسله بعد . ربما أرسله مع هذا – وربما لاأرسل كليهما !– إيقاعه أسرع وصوته نهارى مرتفع . إننى أحب صوتى وهو يتحدث إليك . لعنة الله على الذين شوهوا كلمة « النرجسية » : إنها كشاف إدراك الآخر :
الإحساس به والميلاد معه .

التوهج العاطفى الذى يتوقد لدى هذه الأيام يعيدنى بشكل رائع إلى سن المراهقة البديع . حيث كل شىء مبالغ فيه :
« أأحدثك عن الفجر ؟
أمازلت منصتة ؟
.....
الفجر :
نسيت أن أحدثك عنه .
.....
الفجر لايوصف .
بودى لو عزفته لك على الناى .
هل نافذتك مطلة على الشارع ؟» .
نعم :
نافذتى مطلة على الشارع وترى الشروق والغروب .

أعد منذ أسابيع مقالا عن الشعر والاكتئاب لم أنته منه بعد . يبدو أننى لا أريد ، فأنا سعيدة بجوه الياسمينى المختلط بالحزن والمسرة .

منذ مدة وأنا يلبسنى شعور الاكتئاب – (هناك فرق أعتقد بين الاكتئاب والكآبة) – لاحظت أن العصر الحديث منحنا رخصة اسمها « مرض الاكتئاب) يخول لنا ممارسة جميع عوارض المرض بشرعية كاملة بعد أن كان علينا فيما مضى – قبل تسميته مرضا – أن نبحث عن مبرر للإفصاح عنه : كأن نقول :

« مكتئب لأنى خسرت : لأنى لاأجد : لأنى توقعت ولم يحدث » . الآن يمكننا أن نكتئب بحرية كمثل الأنفلونزا أو النزلة المعوية ، بسبب الطقس أو سوء الطعام . المهم أننى فى حالة اكتئابى – حيث أكون راغبة عن الحركة وعن صياغة ماأشعر حروفا وتركيبات – جلست أقرأ عن الشعر .

لم أود أن أقرأ شعرا . شعرت أنه سوف يرهقنى ، أو ربما ضيع منى اكتئابى وأنا أريد أن أحتويه وأفعل به شيئا مثمرا !

كتبت هذه الملحوظة فى دفترى اليوم بعد انتهائى من ساعة مرهقة تصفحت فيها مجلة أدبية تصدر عندنا :

« الذين لايعرفون النزق والجنون : نريد الذى يجرب مره ثم ينطفىء فيترك لنا أنه جرب وترك شيئا لم يكن قبله موجودا . نريد بيضة الديك التى تخرج رغم المستحيل بفعل الخطأ العبقرى الذى يعطيك مالم تتوقع . كل عظيم ليس فى حياته سوى بيضة واحدة ذهبية يقدمها بأشكال عدة . هذا البيض الكثير لايعطيه سوى دجاج فاتر يضع بيضه بآلية دون تفكير أو دهشة . »

لأدرى سر ولؤم الفرح التى يقيمها النقاد لهذا الدجاج .

أخ ! هؤلاء النقاد الأفيال : صدرى ضاق بهم جميعا . أشعر بينهم بوحدة وضياع حقيقى : أقاومهم فأبدو وكأن على رأسى قبعة من الغرور فتنتابنى الكآبة .

قف إلى جانبى وهوّن على !

عدت الآن من مشاهدة مسرحية ودونت هذه الملحوظة الفورية بدفترى : « الذى يتحدث عن الثورة يجب أن يكون أهلا لها » .

الذى يتحدث عن الغضب عليه أن يكون فاهما له . فقد سئمنا الذين يكتبون بنصف قلم ، والذين يتحدثون بنصف لسان ليأخذوا مجد الكلمة !

مؤلف هذه المسرحية المزعجة الملفقة التى رأيتها ، ليس الوحيد الذى عنيته بهذه الملحوظة . إننى أعنى كل الكهول الذين يزحمون ساحاتنا فلا يزيدوننا إلا خبالا .

الدائرة الفنية تعج بالكتبة والكتاب والدجاج . اكتظاظ.. ليس فى بلادنا فقط . العالم كله مكتظ . إذا كنت مثلهم لن أضيف شيئا ، وإن كنت غيرهم : هل أقهرهم ؟

أريد أن أختبىء لأن ماأعتقده لايتحقق ولاأحققه :

بشكل عام : كل مال يأتى إلى الكاتب أو الفنان عن طريق كتابته وفنه فهو مال حرام !

لايجب أن يكون الفن والكتابة وقول الرأى مهنة يتقاضى مقابلها أجرا .

لابد أن تكون هناك حرفة أخرى للفنان والكاتب يتعيش منها :

حرفة مجهود يدوى كما كان يفعل أسلافنا الشرفاء العظام .

لعلى مبالغة بعض الشىء ، أو لعلى غير قادرة على صياغة ماأحسه إزاء أوضاع الكتابة وقول الرأى . لكنها محاولة – على الأقل – كى أقول جزءا من الحديث الطويل الذى أضمرته لك على مدى ثلاثة أيام .

الثلاثاء الماضى . استيقظت فى الصباح وبخاطرى سيناريو أعددته لكى أكون بطلته ، متصورة كاميرا سينما تتابعنى . كان دورى أن أكون منطلقة سريعة ، مليئة بالحركة والحياة وكان هذا تحايلا آخر لأخرج من كآبة عنكبوتية تعشش داخلى – أنا فى مرحلة كآبة شديدة وهذه المرة كآبة لااكتئاب – لاتتصور كيف أحس بفتور لكل شىء وإن كنت أحيانا أمثل الإشراق حتى لايطمع فى أحد ، لكنها المشكلة حين تسير فى الطريق وترتفع الغصة على غفلة منك وتخرج ، رغما عنك ، عن نص سيناريو البهجة الذى تعمدت أن تلبسه ولو مظهريا .

ترتفع فى لفتة برأسك لترى الذى بجانبك وتفاجأ بما يفلت منك : فهذه قطرة سائلة من الماء المالح تسقط من عينك وتنحدر حتى تقع عند شفتك العليا وتبلعها قبل أن يفتضح أمرك ويسألك الناس وتكذب وتقول :

« – لامافيش .. أمر خاص ! »

أمرخاص ؟

نعم أمر خاص كل هذه الأخبار المدونة بالصفحات الأولى كل يوم فى صحف الصباح وأجلس إلى مكتبى وكلما مر عابر بالغرفة يقول لى : « صباح الخير » فأشكر له طموحه !

ضجرت من الكتابة – كلمتك المفضلة – أتدرى معنى هذا الإحساس ؟

أنا أشعر به الآن كاملا :

إنه ضجر الإدراك أن الأمر لاتستوعبه الكتابة .

عدت فورا من الخارج لأحتمى فى الكتابة إليك .

كنت مع أصدقاء وجلسنا فى مقهى . كادكل شىء يمر بسلام لولا ضيف

لصديق بيننا انضم إلينا . كان غبيا جدا . استفزتنى مناقشاته الفنية عن السينما – (هو معيد بمعهد السينما والأول على دفعته وهذا أعطى غباءه مسحة مضاعفة : تعرف ذلك الغباء الواثق من نفسه !) –

اقترحت أن نسير فى طرقات القاهرة . وكان فى سيرنا فائدة كبيرة لهضم غلاظة الفتى : الكهل ، الغبى ، الواثق .

... أنا لاأخاف منك أبدا .

أهى ثقة فيك أم ثقة بنفسى ؟

الأمر واحد على ماأحسب .

لماذا تشغل نفسك بما يداخلنا ؟

ماالذى يدفعنا إلى الأركان والأزقة والتعثر فى أكوام التراب ؟

قيمتنا هو الجديد الذى يمكننا أن نقدمه إلينا : عن معرفة أنفسنا : عن تكشف ماحسبناه غير موجود وهو زاخر متجمد داخلنا .

« أشياء لامستقبل لها :

.....

عطر زهور الخوخ ،

الرياح والشجر ،

طفولة الفجر والندى ...» .

أتذكر هذه الأسطر وثراء ألا نملك شيئا ؟

ألا يكفى أننا نجدنا حين نريد أن نهدر وحين نريد أن نلقى بألغامنا على العالم الذى لايعجبنا – رغم تأكدنا أنه لن يحترق إلا فى تصورنا ولن يهتز إلا فى آمالنا ؟

هذه اللحظة مهرجان : فلنغن بما « تقوى عليه الحنجرة » . وليكن مكسبنا فى أسوأ النتائج : حصيلة من الأغنيات والنوتات الموسيقية ومجموعة ملونة من الـ « كان » العذبة .

قررت ألا أكتب لك وهأنذا أنفذ القرار ! لم أخرج منذ الأربعاء الماضى .

نظرت من الشرفة إلى الطريق أول أمس وهالنى أن الشجرة التى تصل إلى حد شباكى فى الدور الثالث انكفأت ولم تعد تصل حتى إلى الدور الأول . قالوا عاصفة خماسينية هزمتها رغم غصونها اليانعة واخضرارها وزهرها الأصفر الذى يتوجها .

هذه الشجرة كانت تشجعنى فى لحظات اكتئابى . كنت أنظر إليها وأجدها مخضرة وكأنها تقول لى : ألا ترين ؟ نعم مخضرة ، وزهرى ينبت دائما رغم كل شىء .

كانت تقول لى إن أهم شأن فى الحياة ، أن نثبت وجودنا اليانع .

كانت تشجعنى .

لكن لعلها بدورها كانت تريد منى أن أشجعها .

أشهد أننى لم أمد لها يوما يدى لمساعدة ، بل لعلى أغلقت النافذة جيدا حين استشعرت بوادر العاصفة .

كنت أخشى أن يملأ الغبار أثاث غرفتى أو يسبب لى السعال .

كذلك إذن نحن دائما : نفرح بالاخضرار ونستشهد به ونستند إليه وننشغل فى الرواية عنه حتى نسهو عن حمايته ، وحين نفاجأ به منكفئا ننقسم إلى قسمين : قسم من نافذته يبكى ، وقسم يهرع لإزاحته حتى لاتعوق جثته الطريق .

بسرعة قطعت الشجرة أجزاء وحملها اللورى بعيدا عن ناظرى .
بقى الجذع ناتئا : قصيرا أجرد مثل ثورة مقمعة .
قلت وأنا أغلق النافذة : هناك الجذر : سوف تنمو ثانية .
ولم أنظر إلى الطريق أمس أو اليوم فكلماتى المتفائلة لم تنجح فى أن تغير واقع الألم الذى حز قلبى .

الساعة الثالثة بعد الظهر . أهل المنزل يسافرون جميعا إلى البحر . سأبقى فى البيت مع أربعة أزواج من الحمام وخمسة زغاليل والقط فردوسى . أمى توصينى كلما دخلت غرفتى بألا أنسى إطعام الحمام وسقايته .
لن أخرج اليوم أيضاً ولن أخرج غدا .
قرأت اليوم مسرحية « دورينمات » : « روميلوس العظيم » مسرحية خفيفة الظل لكنها لم توح لى بفلسفة أتراسل معها .

الجو شديد الحرارة وأشعر بالضعف لمواصلة الجدل حول دورينمات .
ليس لدى حديث متصل .
الحقيقة أننى أريد أن أجلس صامتة ، لكن كيف أبين ذلك كتابة : كيف أبين أننى أريد أن أتحاور صمتا ؟
أشعر بالعدمية .
أقرأ كتاب البرتومورافيا « ثورة ماو » . الصفحة الواحدة طالت وإن كانت ستنتهى حالا .

صمت . صمت . صمت . صمت . صمت .

... أنت لاتعرف مدى غور الدين لدى .

لاتدرى أن انطلاقى وجسارتى ومحبتى وثورتى وحماسى كله منبثق من نبع الإسلام الذى كرمنى الله ففجره داخلى وله الحمد .

لعلك تضحك . ولكنى حزينه ومتألمة : لماذا تريد أن تفسر تدينى كأنه قصور :

كأنه مهرب : كأنه مصدات رياح ؟

أنا أفضل كثيرا مما تظن : ليس هناك شيء أفعله : لاأفعله بحرية ، كما أنه ليس هناك شيء أمتنع عنه ، لاأمتنع عنه بحرية .

أنا أحب الله باختيار وعمق .

بالمناسبة : حكاية من الباب الثانى فى أخلاق الفقراء من كتاب « جُلستان » لسعدى الشيرازى فى ورقة مطوية أفتحها وأعيد قراءتها لك ، لعلها تقرب عندك معنى الدين لدى :

« لا أزال أذكر أننى كنت فى عهد طفولتى مولعا بإحياء الأسحار ، زاهدا تقيا وفى ذات ليلة قعدت لخدمة أبى والمصحف الشريف فى حجرى أقرأ منه ماشاء الله أن أقرأ ولم ينطبق لى جفن على جفن وكان الجماعة الذين أتوا للسهر عندنا قد غرقوا بنومهم فقلت لأبى : – إن واحدا من هؤلاء لم يرفع رأسه ولم يتهجد بركعتين ، ولقد استغرقوا فى نومهم فكأنهم أموات .

فقال لى .

– ياروح أبيك ، أنت أيضا ، لو أنك نمت لكان خيرا لك من أن تمزق جلود خلق الله !»

وصلت أمس إلى شاطىء البحر . الشاطىء هنا هادىء فى منتصف الدلتا تقريبا . أول مرة أرى « بلطيم » . أحببتها جدا . المأوى أمام البحر ، ركبت حمارا طاف بى الشاطىء ثم ذهبنا إلى جبل النرجس – مجموعة تلال رملية تنمو عليها زهرتى : زهرة النرجس ، والتين والعنب الأسود .

هنا البحر والصحراء والزرع الأخضر !

القاهرة . مكتبى مرة أخرى . البحر مازال بأنفى صبوحا . القاهرة تعذبنى . امرأة مرهقة . شعرها جاف يحتاج إلى حمام زيت يغرقه فيتشربه ويلين .

القاهرة أحسها دائما ظمأى . لو أسقيها . لو أعرف كيف لاأجهش بالبكاء كلما سرتها . ضحكت أنت مرة لأنى قلت لك : أود لو أضفر للقاهرة شعرها وأغسل لها وجهها وأمسح أنفها بالمنديل .

أود لو قلت لها : أنت ياقاهرة رائعة وتذوبين فتنة وأصالة فلا يهمك ، فقط لاتنظرين بعيون قلقة . وعندما تقررين شيئا لاترددى . لاتستعيرى مالا يلائمك وامتلئى ثقة فأنت حسنة . لاتصدقى أنى أتركك . فقط لو تكونين « أنت » ولاتجعلينى ، ياقاهرة ، أجهش بالبكاء أكثر . أتشاجر معك ولك ياقاهرة . شجارى الدائم منبعه هذه المدينة التى أرى فيها صورتنا الكاملة .

شجارى مرتبط برؤيتى .
يشدون ضفائرك وأسكت ؟
يلكزونك ولاأنشب فى رقابهم أظافرى ؟
ابنتى أنت : كيف لاأتشاجر ؟
عسير .

القنوط حالة غير شعرية : أليس كذلك ؟

حالة تداهمنى : أشبه بأدوار التسمم : هادئة ورزينة وأتكلم الجمل الجهمة المعقدة مثل نصوص دساتير الجمعيات الأدبية .

هل قرأت « معذبى الأرض » لفانون ترجمة سامى الدروبى وجمال الأتاسى ؟

أعود لهذا الكتاب ويملأنى بالتوتر حتى حافة تصلب الأطراف والتصارع حتى لاأكتب .

تلح على فكرة النفى الذاتى والقنوط .

لكن لاأريد أن يستسلم حزنى للجهامة ، بل يظل كما ألفته ، يتفجر بالكلام والطفولة والضحك :

نحن نتنفس : شهيق ، زفير حتى لحظة الموت .
لايمكننا التوقف .
مازالت تلح على فكرة النفى الذاتى .
قانطة .
لاتكلمنى بعصبية .
العصبية تعدينى وأفتقد الأسلوب الذى يجعلنى
أسكن بالحديث .

هل يصلك صوتى ؟
أتمنى لو بإمكانى الكتابة بفرشاة تلطيخ الجدران .
الساعة لعلها الفجر .
أصوات الناس مازالت بالطريق .

يبدو أن الساعة الآن متأخرة فى الصباح : ربما كانت الحادية عشرة صباحا .

استيقظت وبى ألم فى ذراعى . ليس ألم روماتيزم ، وإن كان يشبهه ، لكنه ألم يأتينى فى حالة التأزم النفسى . ليس هناك سبب محدد أعرفه لهذا التأزم النفسى لكن ذراعى لاتخطىء فى ألمها : هناك قطعا الأسباب الحاسمة .

بى أيضا دوار وصداع وربطة حزن ثقيلة فى قاع المعدة .

أيقظتنى أمى لكى أتناول معها الإفطار : « فول بالبيض » . قالت هذا بشىء من الترغيب كأننى سأقفز فور سماعى نبأ « فول بالبيض » . قلت لها : « حاضر » . ولم أشته تناول أى شىء حتى وإن كان فولا بالبيض :

– (لاأدرى من أين استنتجت أمى أننى أحب هذا الطبق ؟ الواقع أنها هى التى تحبه ، وهى ترغبنى بالشىء الذى تحبه وقد يعتبر البعض هذا قمة المحبة الصوفية !) –

عندما تباطأت فى النهوض – (كنت أريد تأجيل تحملى لمسئولية استقبال اليوم الجديد) – جاءت لى بصينية الإفطار ووضعتها إلى جانب سريرى : الشاى والفول بالبيض . شربت الشاى واعتذرت عن الفول بالبيض فابتأست وألقت إلى بالجرائد اليومية الثلاث فوجدت نفسى أمام الأمر الواقع !

بدأت بالأولى وقاومت قراءة البخت ، فقد قررت منذ أمس أن أقتل هوايتى للأبراج وطالع النجوم بعد أن قرأت خطبة لسيدنا على بن أبى طالب ، فى كتابه « نهج البلاغة » عن النهى عن الاسترشاد بطالع النجوم قائلا :

« يأيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم ، إلا مايهتدى به فى بر أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر . والساحر كالكافر والكافر فى النار ، سيروا على اسم الله . »

أقرأ بنهم هذه الأيام « نهج البلاغة » .

سبحان الله : كل خطبة فيها تقريع أجدها ملائمة لنا جدا .

أتناول الجريدة الثانية : « القوات الأردنية تستخدم النابالم فى محاولات التصفية ضد قوات المقاومة » :

« بعد تنفيذ أحكام الإعدام .. محاكمات لمئات المعتقلين » !

لابد أن يتوقف فى حلقى الشاى .

حين قرأت كلمات سيدنا على لأبى ذر الغفارى وهو يخرج منفيا : « لايؤنسك إلا الحق ، ولايوحشنك إلا الباطل ... » بكيت وقررت أن أعلقها فوق حائط مكتبى بالمجلة مع كلمته : « والله مامعاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهيتى للغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غدرة فجرة ، وكل فجرة فى النار . »

الجريدة الثالثة كانت ضمن المدعوين إلى القصر ... الخ لست أستبشر خيرا بالبدء فى قراءة هذا .

« ديمقراطية الثورة : خلايا تضعف وتبتعد وخلايا تأخذ مكانها . طبيعة تتجدد وحياة تستمر .. » جميل أن يظل هناك من يكتب بمثل هذا العنفوان !

فى نفس الطبق وصف مبتهج لما فعله « المداحون » الذين سافروا باسم فنانى مصر ليعيدوا عهد مذلة الفن فى ردهات القصور وتمريغ الجبهات فى البلاط لإحياء أعياد ميلاد لاتراعى الدماء التى تخر من الأبدان المسفوحة على الجانب الآخر المغطى بالصرعى !

ربما خرجت هذا المساء أتريض بالسير .

أصدقائى جميعا وجوههم شاحبة .

ومساء صيف القاهرة يعبقه الياسمين والخجل الذى يقف فى الحلق .

وهل غير الخجل أرتديه وأنا سائرة وحدى أتنفس الهواء المنبعث من النيل

الكتوم الطيب . وأتكوم مستندة إلى الحاجز الحديدى وأصب فى النيل مالاأقدر على البوح به لأحد : إنه القهر الذى يمنعك أنت ابن المرحلة من التعبير عنها والخدمة فيها . ويكون قهرك تحت الشعار الذى حاربت أنت أولا لترفعه ، وثانيا لتحققه ولتحافظ عليه :

أنت مقهور فى مرحلة القهر ، ثم أنت مقهور فى مرحلة شعار « قهر القهر » : لأن المرحلة تحولت إلى قهر بالقهر بالقهر وتنفيذ العملية بالقصر والعميان والأنذال وتفتح عينيك لتجد أنك مازلت أنت المقهور فى المحصلة النهائية ، والقاهر هو الوجه العتيق القديم وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « لست أتخوف على أمتى من مؤمن أو مشرك ، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكنى أتخوف عليكم من منافق عالم اللسان ، يقول ما تحبون ويعمل ماتنكرون ! »

انشغلت فترة فى متعة حزنى وصمتى وتمسكى بالطفولة :

لاأود أن أكبر .

هذه مثاليتى .

أكره عالم الكبار .

أكرهه بضميرى وجديتى ، فأنا أعتقد أن الطفل أكثر صور الإنسان جدية . لاأدرى لماذا أنا مشغوفة هكذا بالجدية رغم أنها هلهلتنى وتزيد هلهلتى كلما اصطدمت طفولتى بعالم الكبار .

هؤلاء الكبار لايعرفون أبدا لحظة لايكفون فيها عن الهزل ؟

الهزل بالعفوية والتلقائية الإنسانية التى تقول ببساطة : إن الإنسان السيىء : شيء سيىء للغاية وأن الناس سواسية كأسنان المشط وأن الألوان الحلوة هى الألوان الصريحة .

دائما أسمع الرد على احتجاجاتى باتهام أننى مثالية أو خيالية أو مشاغبة أو محبوطة أو حساسة إلى درجة المرض ، لكنى أرانى فى عنفوان الصحة . ببساطة هناك أشياء تصلح الحال بتعديلات بديهية جدا ، بمجرد تلافى تكليف الأعمى لضم العقد المنفرط .

أرغب فى كتابة شىء فيه عبء ماأريد أن أقوله ، لكن ماأريد أن أقوله أكبر من عجزى : رغم أننى مستعدة بكل قواى أن تكسر رقبتى من أجل ألا يتسرب إلى اليأس أبدا .

أمس وأنا فى طريقى إلى المسرح تسلمت خطابك . فرحت به ولكننى حين قرأته تغير موقفى : كان غرضى أن أطمئن عليك والآن بعد أن تأكدت أنه لم يحدث لك ماصوره قلقى : يمكنك أن تذهب – (كنت قد تصورت أنك اعتقلت .)

ليس بوسع أحد أن يدلل الآخر : فليس هناك شعور بالضيق ينفرد به واحد . – (حين عدت مقهورة من المسرحية الرديئة عدت وبى رغبة أن أشكو موجة النصب الفنى وحين طرأت لى كملاذ أشكو إليه غمى ، غضبت من نفسى لأننى كنت لاأزال مسمومة من خطابك اللعين ، فنمت بعد أن تناولت حبة مهدئة .)

قطار قام من القاهرة .

قد يكون مفاجئا لك لو علمت أننى ، عندما ألقيت بخطابى السابق إليك ركبت القطار إلى الإسكندرية ونظرت من النافذة متصورة أننى أودعك على رصيف لاأقف عنده ثانية أبدا .

عندما نزلت من القطار وسرت فى طرقات المدينة كنت أتصرف فعلا باعتبار أن هذا التصور قد تحقق . شىء مثل الذى يتمنى الخلاص من الحياة ولايبلغ

تحقيق ذلك إلا بالتصور .

لماذا يحدث أن يتمنى الإنسان أحيانا التخلص من الحياة ؟

سؤال قد يبدو كمصيدة فلسفية . ولكن لدى له إجابة مبسطة :

عندما نبلغ قمة التعلق بالحياة : قمة التصور المثالى لما يجب أن تكون ثم يكون أول احتكاك مخيب ، ينبعث فورا خاطر ترك الحياة .

إننى لست بصدد أن أقول ماذا خيبنى فيك ، فلعلى أنا الذى خُيبت فى نفسى أو لعله الطقس الخماسينى الذى هزنا سويا . هل هزمنا ؟

هل تعتقد أن اخضرارنا لم يكن – أو ليس – فى قوة الصمود للضرب الترابى الجاف ؟

لماذا لم أعد أجد فيك مايشجعنى ؟ هل انكفأت ؟

لم أعد أرى زهراتك الصفراء المرحة التى كانت تشيع فى الائتناس والرقة :

أنت متجهم وأنا مكتئبة : فلتصمت الأغنيات ، وليصفق الدود ، ولتدس الأفيال الورق الأخضر .

قلت لك أكثر من ذلك طويلا للبحر .

– (وكان البحر مزمجرا لايكف عن حركة القدوم والرواح والقدوم ...) – كانت الشجرة تقول :

« أهم شأن فى الحياة أن نثبت وجودنا اليانع ! »

تذكرت أننى قلت لك مرة – وكلانا تواق أن يستعين بالآخر لبعث أجمل مافيه – إننى أريد أن أجعل منا شيئا : دائم الاخضرار .

لنبق إذن على جذورنا ، ولو بدت وجوهنا مقمعة كالجذع الناتىء : قصيرا أجرد .

سوف تنمو ثانية . تفاؤل ؟ نعم :

وألم يحز القلب .

مونتاج ١٩٧٥

مولد روائى من الجيل المقهور

تصلنى بالبريد روايتان لروائى سكندرى لم أسمع به من قبل اسمه : « **محمود حنفى** » . يقدم لى نفسه بهذا الإهداء : « هذه بعض أعمال كاتب مجهول وإن كان قد حاز على جائزة الدولة التشجيعية » !

أتصفح الروايتين وأجس نبضهما قبل أن أضع رأسى كاملة فى عالمهما . أبدأ بقراءة : « **يوم تستشرى الأساطير : سِفر إخفاق** » ! مطبوعة على نفقة مؤلفها الشاب ، ٦٠ صفحة ، تنسقها ريشة وعين الفنان التشكيلى « **داوستاشى** » ، الذى أسمع عنه كذلك لأول مرة ولا أعرف معنى اسمه .

أنتهى من القراءة لكنى لاأنتهى من الرواية واضح أن معرفتى بهذا الكاتب ، الذى لم أعرفه من قبل ، واضح أنها بداية لدخولى عالماً خصباً جياشاً لأديب هام حملته رحم الستينيات والسبعينيات لكى يولد عند مشارف الثمانينيات ، وماكان له أن يولد من قبل ولغط تلك السنوات يصم الآذان ويعمى العيون ويخرس الألسن .

بعد انتهائى بساعات من قراءة « يوم تستشرى الأساطير » ، أنجذب بقوة لأبدأ وأنتهى من « حقيبة خاوية » ، ١١٨ صفحة ، وصدرت قبل « الأساطير » بعامين فى ١٩٨٠ ، مطبوعة هى الأخرى على نفقة الأديب الشاب ! – (الحقيقة أننى لاأدرى إذا كان الأديب شاباً أم كهلاً مثلى تخطى الأربعين ، لكننا هكذا تعودنا تسمية كل أديب نسمع عنه لأول مرة ، رغم أنه لاغبار على إنسان أن يبدأ وجوده الأدبى فى الساحة فى الأربعين هكذا بدأ برنارد شو وهكذا بدأ صمويل بيكيت ، وهأنذا أبدأ بدايتى الثالثة فى الصحافة وقد تخطيت الأربعين التى ينتهى عندها الكثيرون !) –

ألاحظ نفسى ، بعد قراءة الروايتين ، أننى فى حالة حماس وتوتر كأننى قد أنجزت فعلاً إيجابيا . لم يستحوذ على عمل أدبى كما استحوذت علىّ هاتان الروايتان منذ روايات **غسان كنفانى** ومنذ رواية « **الشمندورة** » **لأحمد خليل قاسم** .

كانت أعمال غسان كنفانى تتميز بتوهج الموضوع وارتباطه المباشر بساحة الأحداث الملتهبة ، مع حساسية فى الأسلوب تمنعه من السقوط المغرى فى الميلودرامية واللجاجة والابتزاز الممجوج بالقضايا المصيرية . بهذه الحساسية وصل « غسان » إلى الصياغة الفنية التى تختزل الإسهاب اللفظى لصالح العمق الشعورى بواسطة الكلمة المؤدية ، بصدقها وإيقاعها وموقعها ، إلى انفجارات فى الرؤى تقود القارىء إلى التقاط أبعاد ، فى المعنى والدلالة ، غير مكتوبة .

وكانت رواية « **الشمندورة** » – وهى أول رواية نوبية فى الأدب العربى – رغم طولها وإسهابها ، فى وصف الطبيعة والأماكن وتفصيلات الشخصيات، تحمل نفس سمات ذلك العمق المركب .

وكما حملت لنا روايات « **غسان كنفاني** » خصوصية إفلسطين وشمولية العالم والقهر الإنسانى ، وحملت « **شمندورة** » أحمد خليل قاسم رائحة النوبة وخصوصيتها ثم امتدت مع ذلك لتعكس فى مرآتها شجون الإنسان الخارج من أسر عالم بطىء آمن فى تخلفه ومدثر بحدوده ، إلى فخاخ الحلول الحديثة التى – حين يطرحها المستعمرون – ينكشف ظاهرها الرحيم ليتبدى باطنها : « العذاب » ؛ يأتينا كذلك عالم « **محمود حنفى** » السكندرى بخصوصية البحر والمطر والمدينة التى يفقدها أهلها نصف العام لغزاة سياح يأتون من كل مكان صاخبين بالطعام والعرى وإضاعة الوقت فى استرخاء ، ومع هذه الشخصية الإسكندرية البارزة فى روايتيه ينسحب العمق الدفين لهما ليعنى مصر كلها ، بل ليمتد غائراً تجاه عمق الوجع الضارب مساحة الوطن العربى بأكمله . هذا الوطن الذى هب بثورات الخمسينيات تواقاً نحو حلم الاستقلال وبعث الذات الناهضة وإذا به يُضرب فى الستينيات ، بلا هوادة ، بكعوب البنادق ووخز السناكى ليخرس تماماً تحت القمع ، وليجر بعدها ذاته المشلولة المعوقة نحو سنوات السبعينيات المحملة بالانهيارات والدمار .

وأمام فجر الثمانينيات لايبقى سوى الإلحاح بمطلب « **الحرية** » كإسعاف أولى قبل فوات الأوان وإلا : فليس هناك سوى التساقط صرعى بفعل الكمد . أو الانتحار الجماعى أو الإبادة بكافة أشكالها .

ينتمى أسلوب « **محمود حنفى** » إلى مدرسة « **الاختزال** » التى كان غسان كنفانى من أعلامها وهذا الأسلوب لايستجيب لأى كاتب ولايمكن أن يقلّد

أو يفتعل أو يكتسب بالمران ، فهو لايتأتى إلا لصاحب مزاج عصبى متوتر ، يتعرض له الاكتئاب ويقطع طريقه ، مكتظة مشاعره ونافد صبره بنفس الوقت . يكتب الكلمة واثبة حية كأنها منفلتة من قيد كبتها وكظمها طويلاً . هذه ليست كتابة سهلة فهى ، رغم قصرها ، مكثفة وعناء يفيض بصاحبه ولايجد بُداً من طرحه وبسطه أمام الأعين فيخرج كأنه رسالة الكاتب الأخيرة إلى الأحياء !

مع سمة « الاختزال » هذه يستغل « **محمود حنفى** » صيغة « المونولوج » – الحوار الداخلى – يدونه طويلاً : يدور فى القلب ويصعد إلى الصدر ويدق العقل والشفاه مغلقة ، وإذا تكلمت فلا تكون كلماتها سوى زيارة مستعارة نحو الخارج ، المليء بالضجيج والفراغ والتيه ، ثم تنقطع هذه الزيارة المؤقتة لتعود الشفاه منطبقة على داخل يمور ويهدر ويطوف ويعلو ويهبط ويتساءل كثيراً لتنفجر الإجابات كالألغام تطيح بالسكينة والخدر والإنسياق الآلى مع طاحونة الحياة اليومية الغارقة فى مشاريع الكذب والتفاهة حتى الإماتة .

هذا العالم الداخلى ، الذى يُدونه « مونولوج » شخصيات « محمود حنفى » ، تلفه مفارقات متداخلة تروح وتغدو بين « **الخارج** » المساوى للصمت الصاخب و« **الداخل** » المساوى للصخب الصامت فتشيع معها الفكاهة المؤلفة من : السخرية والبراءة فتتولد عند القارىء تلك الضحكات الخاصة المبتلة بندى العين !

نرى ، فى « **حقيبة خاوية** » ، مونولوج الشخصية الراوية متعرجاً مرتطما فى دوى بجدران مرحلة لم يفلت من براثنها المهلكة أحد : لا المتكلم الذى آثر الهدوء والسكون مع « الأغلبية الصامتة » ليترك فى حاله يبني بيتاً نمطياً تستهلكه الحياة وتلتهمه فكأنه ماجاء هذه الأرض وماعبرها : « **هأنذا قد تعريت أمام نفسى دفعة واحدة ، ودون مقاومة تذكر : مخلوق مشوه ضعيف ، تأسره**

الاهتمامات الضيقة وتخلخل إرادته مغريات المكاسب الزائفة .. » – حقيبة خاوية ، ص ٢٥ – ولاصديقه عادل – الوجه الآخر للعملة – الذى أرغمه التميز بالفن على التميز بالرؤية التى دفعته بالتالى إلى موقف الصدق مع نفسه حتى سقط ميتا حارقا أشعاره بعد أن وقف بصدره الشجاع الأعزل يتحدى – فى فروسية غابرة – قدر الهزيمة التى سحقته وقد حتمتها ديناصورات مرحلة ثبتت أقدامها النتنة فى ثقة واطمئنان فوق رقاب الجميع .

ثم نرى فى « **حينما تستشرى الأساطير** » المونولوج مشطوراً الى اثنين يأخذان شكل التبادل كالحوار بين شخصيتى الرواية : « **سالم** » الذى أفاق فى قمة صعوده سلم المجتمع ناجحاً ليواجه حقيقة أن صعوده كان رهنا بالتنازل المستمر عن آدميته حين تلفت ليجد الحفل حوله « **... إما سحالى تزحف على بطنها أو ضفادع تقفز من مكان إلى مكان أو فئران تنظر إلى من على بعد بأعينها الجبانة المترقبة الحذرة المتأهبة للانقضاض على رأسى عند أول غفلة أغفل أثناءها عنها .. ولقد جريت من البيت هارباً سعياً إلى الانعتاق من هذا الحصار البشع** – ص ٢٤ – أما « **أمين** » ، فهو مثل الرواية الأولى ، الوجه الآخر من العملة : الفنان مرة أخرى – الذى أخذ الفن ، « **قضية حياة** » ، فجرفه إلى الاهتمام بابداء الرأى وهكذا : « **... رصدنا وتم تصنيفنا ... وأخيراً قبض علينا جميعاً ووضعنا فى السجن ...** » – ص ١٨ – ومرة أخرى تتأكد فكرة « الإخفاق » الآدمى فى التعامل مع زمن استحوذت عليه الديناصورات والضفادع والسحالى والفئران .

ويبدو موضوع « الإخفاق » هاجساً ملحاً يدفع الكاتب « محمود حنفى » الى إفراد روايتيه له لنجدهما تنويعين على موضوع واحد ينتهيان بالموت ومشارف الجنون ، فى واحدة ، وبالانتحار سوياً غرقاً فى البحر فى الأخرى .

ولاأرتاح لهاتين النهايتين ، لأنى برؤيتى الإسلامية لاأرى اليأس حلاً ، لكننى أستطيع أن أرى إمكانية بروزه كحل لمن أسقط بُعده الإسلامى ، فانطفأت بذلك أنوار طريقه وأصبح وحده فى ظلمات لاتقوده إلا إلى : « العدمية » !

ويبقى « **محمود حنفى** » ، رغم حلوله « **العدمية** » هذه ، شهادة احتجاج على زمن « القهر » ومرحلة « الإخفاق » – الناصرية ومابعدها – تأتينا بإضاءة جديدة سوف تلمع فى أدبنا الروائى الحديث لتعلن : ميلاد روائى فنان من جيل المقهورين !

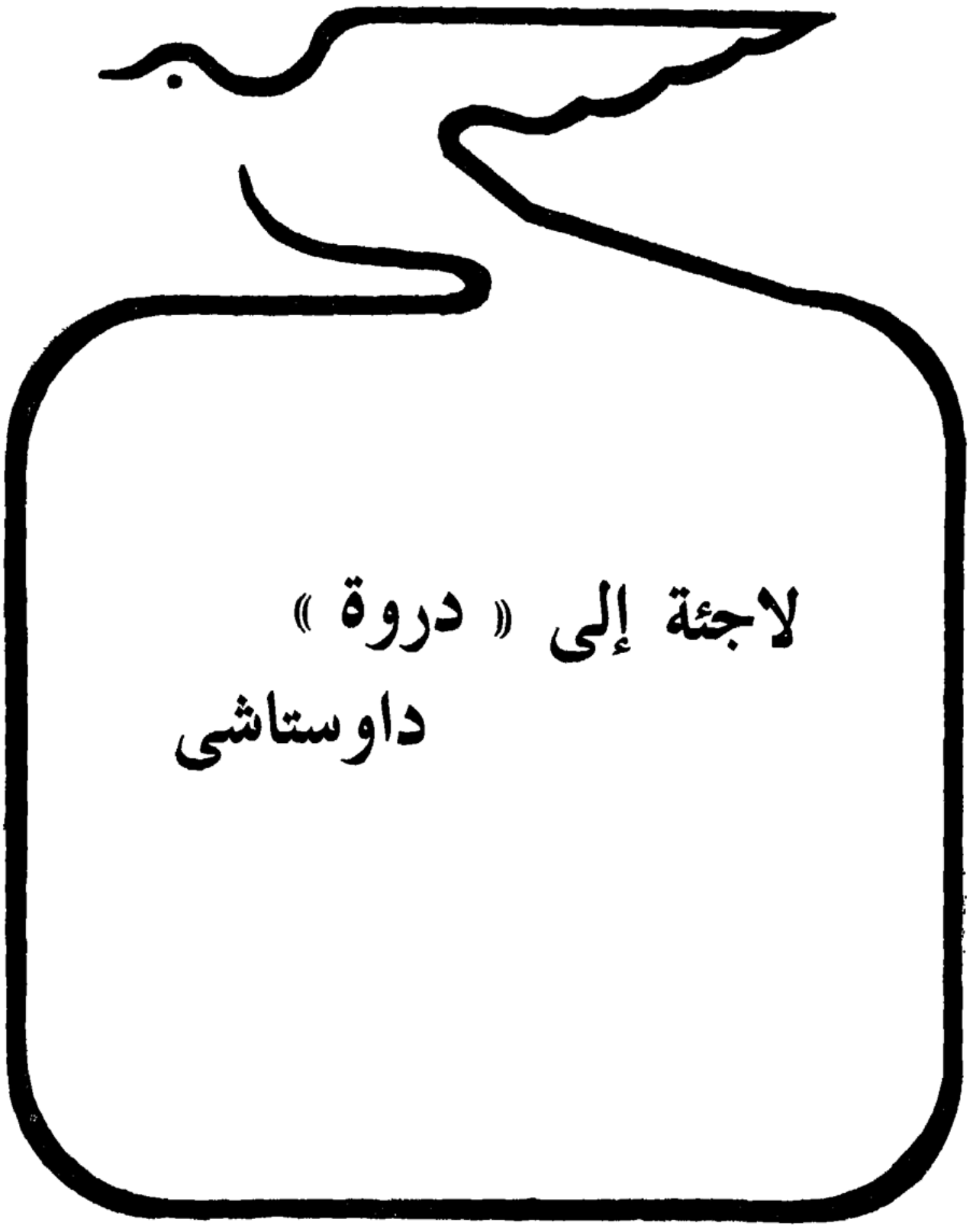
لاجئة إلى « دروة »
داوستاشى

أقف لاجئة عند باب الفن التشكيلى – وذلك بعد احتلال موطنى الأصلى ، المسرح .

نعم نجحت جرائم القتل بالملل ، التى ترتكبها بالجملة ديناصورات المسرح ، نجحت فى إبادتى من جزيرة المسرح ، خاصة بعد أن توصل خبراء القتل لديهم فى تأليف عبوات ناسفة محشوة بمزيج من المغالطات + الخلط + تزييف التاريخ + الابتزاز باحتياجات الجماهير وأزماتها + المزايدة بقضايا الوطن للضرب فى مواطن الوجع ، وجمع ذلك كله داخل غلاف من الهستيريا والبذاءة وخفة العقل .

حين فرضت على المذابح فى المسرح الهجرة بقلمى وقفت ككل اللاجئين الحيارى أبحث عن أرض تشبه أرضى ، وقد كانت لى أصول تعود الى قارة الفن التشكيلى ، وذلك لأن الأنساب فى « كون » المسرح تمتد إلى كل قارات الفنون .

وهكذا أخذت زوادتى واتكأت ، لحين ، تحت ظل معارض الكتب ، وقاعات عرض الفن التشكيلى ، والمذياع إلى جوارى يصب فى أذنى آخر أخبار « دفع الله الناس بعضهم ببعض » ، ومسلسل جرائم القتل بالسلام وهو ، آخر ماتفتقت عنه عبقريات الدول الكبرى .

أدخل عالم الفنان التشكيلى عصمت داوستاشى عن طريق رسومه التى جاءت إطارا مصاحبا لكتاب « حين تستشرى الأساطير » ، رواية أديب جيلنا محمود حنفى ، الذى يأتى ساحة الضوء الإعلامى فى هدوء أقرب إلى الاستحياء : أتساءل عن معنى « داوستاشى » وأعرف أنه لقب قديم فى نهاية الاسم الطويل للفنان عصمت عبد الحليم ابراهيم عبد الحليم بلال يوسف ! ويكون « داوستاشى » دلالة أصل أسرته التى هاجرت إلى مصر قادمة من جزيرة « كريت » فرارا من مذبحة عام ١٩٢٠ الشهيرة التى تعرض لها المسلمون هناك لإجبارهم على إخلاء الجزيرة لتفرغ ، بالقوة ، من المسلمين . ويولد عصمت فى حى أبى العباس بالإسكندرية ١٤ مارس ١٩٤٣ ، وبعد أن يتخرج فى الثانوية الفنية يقيم أول معرض له عام ١٩٦٢ فى التصوير والرسم . يدخل كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية ويتخرج عام ١٩٦٧ بامتياز فى قسم النحت ، وقد ظهرت بوادر نبوغه الفنى فى المعارض والجوائز التى حصل عليها أثناء فترة دراسته . يرفض إطار التدريس بالجامعة ويسافر للعمل بالخارج ليجمع رأس المال الذى يساعده على تنفيذ أعماله الفنية ويمكنه أن يسند اليه ظهره حين يريد أن يتفرغ للإبداع . وحين يعود ١٩٨٠ ليستقر بأرض ميلاده الإسكندرية ينكب على العمل والإنتاج الذى يمكنه من الاشتراك فى معظم المعارض العامة التى سبقت معرضه الشخصى الذى أقامه أخيرا فى أتيليه القاهرة تحت عنوان « دروة » .

قبل أن أذهب إلى معرضه هذا الأخير كنت قد تلمست بؤر إبداعه المتأججة فى كتابته التجريبية التى هى فى حقيقتها « تدوين » سيناريو مشروعات سينمائية ومسرحية .

كتيب صغير يسميه : « كتالوج ٧٧ : الأشياء » : يقدم فيه خطة فيلم بعنوان « عشرة مقاطع من الدفء الكاذب » و « من إرهاصات الذى يدور فى دائرة تتسع » ثم « عناوين لوحات » تصنع ، بتجميعها ، شبه قصيدة من الشعر يخلق

تنافرها الظاهرى إيقاعا متألقا فى الحس يثير الضحك لحظة ويكثف الهم فى النهاية :

تراكمات الحزن فى وجه مصرية .

إنه ينتظر الذى لا يأتى .

الموت يحمى محصوله من الموت .

رائعة هذه المرأة : طموحها سيهلك العالم .

لا لم يمت ولكنه ينتظر .

وجه شخص مجهول يهدد الثوابت .

حبيبتى مصر .

من هنا : ولكن احترس فكل شىء خطر .

ثلاث بقع دائرية سوداء وأصابع قلقة .

تخيل أن يحدث هذا دون أن تدرى ؟

أمنا الغولة الطليقة فى كل مكان .

بعد كتيب « الأشياء » يجىء إلينا داوستاشى بـ « الصمت » ، وهو تدوين آخر لسيناريو مسرحى يقدم مايسميه « خمس حالات » يعرضها فى إخراج فنى تمتزج فيه قدراته التشكيلية مجتمعة وخاماتها الصوت ، والحركة ، والإضاءة ، والكلمة ، متضافرة لتثير فى النفس والحواس مايثيره الشعر والموسيقى وتكوين اللوحة ، ويقدمها كلها بإهداء كأنه الوداع :

« الأشياء التى تحطمت إلى أشياء ، والصمت الذى تفجر إلى مزيد من الصمت ، ويبقى : الرحيل ! » .

لكننى أذهب إلى معرضه فأجد أنه وجد الاختفاء حلا موفقًا يؤجل « الرحيل » ، ولو مؤقتا ، ويتوحد فيه مع شخصية « دادا » الذى يترك فوضاه وعدميته القديمة « الدادية » ليعود على يدى داوستاشى فى انطلاقة مستنيرة تمزج « الفن » مع « الحاجة » ، وتدخل « الدروة » باختيار ، حيث يتم اكتشاف الإنسان لحقيقة نفسه « الخيرة » أو كما يقول داوستاشى : «... يختفى ليجهز نفسه لخروج جديد حين تهدأ النفوس وتولد من جديد فى ظل دروة فنية تجمع بين الفنان والناس والأصالة والحب » .

لعلى غير مواكبة ، ولكنى لأول مرة أذهب إلى معرض فنى يطرح فيه فنان حلوله الإبداعية فى تكوينات مختلفة ، لقطعة الأثاث ، التى يسميها البعض « الساتر » والشائع عنها « البارافان » ولفظتها العربية الصحيحة « الدروة » .

٢١ دروة عنها يقول الفنان داوستاشى : « مختارات من أعمال نحتية مفصلية بخامات الخشب والنحاس والزجاج الملون والمرايا والحديد ، أنجزت خلال عام ١٩٨٣ . » تختلف أحجام هذه التنويعات على موضوع « الدروة » وتختلف أسماؤها وفق احوال المختبىء : فمن دروة « التوالد » إلى « الفرح » ، « الرجل » ، « المرأة » ، « الثعبان » ، « الكف » ، ودروة « صوفية » ودروة « النور » الى آخر القائمة . وتتراوح القطع المكونة للدروة من قطعة واحدة مثل « دروة تقليدية » إلى ست قطع مثل « دروة العطاء » . كل دروة « تعبر » عن مدلولها وفق التصور الخاص للفنان لكنها لا « تشخص » المعنى بأى حال . وهكذا يكون داوستاشى قد نجح فى الخلاص من مأزق « النحت » المحرم فى الإسلام ، بخروجه من تشخيص الإنسان أو الطير أو الحيوان : هذا المأزق الذى وقع فيه « الواسطى » ومجموعة الفنانين المسلمين فى تاريخ الفن إلى

الآن ، الذين انحرفوا عن الرؤية الإسلامية المنبثقة من محللات ومحرمات العقيدة الإسلامية . فالواسطى وأمثاله كانوا فنانين مسلمين لكنهم لم ينتجوا فنا إسلاميا ولذلك لا يجب أن نضعهم فى متحف الفن الإسلامى على أساس أنهم جزء منه .

أقف أمام حشد الـ ٢١ « دروة » وأنا منشغلة فى صيغة جمعها : هل هى « دراوى » ؟ ثم أنتقل إلى إحساسى بوقوعها فى وحدة من اللون القاتم : « البنى » بدرجاته المختلفة . كيف تتأتى دروة « النور » بهذه القتامة ؟ وكيف تتوحد ألوان (الفرح » مع « الثعبان » مع « الحب » مع « الظلام » ؟لكن اللون الذى ينحصر ويضيق فى « الدراوى » ، نراه يشع وينطلق : ساخنا أو دافئا أو باردا أو ماديا أو روحيا فى قطع التصوير المنفذة بالزيت على توال وخشب . وتتعلق عينى بتشكيل فذ لكلمات سورة :﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر** ... ﴾ تبرز صيحة نذير متجددة تحمل مع الوعيد ، الوعد بالخلاص : ﴿ ... **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** . ﴾ ونقطة الالتقاء تتلخص فى هلال ونجمة خماسية .

كيف يمكن أن أوجز توصيفى لداوستاشى : هذا الكيان الفنى المتكامل الذى يرتكز على الشعر ، وهجا يشمله من رأسه الى أطرافه ولا يسعفه شكل واحد من أشكال التعبير فيكتب ويرسم ويصور وينحت ممسكا بالسينما والمسرح وقطعة الخيش والخشب والألوان يتدفق فى كل اتجاه وبكل شكل ولا يرتوى له ظمأ ولا يهدأ له جوع إلى التعبير ؟ .

داوستاشى : حزين مستنير ، يعرف أن الحزن طاقة إن لم تركبها ركبتك ، وهو لذلك يمتطيها كفارس خبير بالخيل الجامحة ، يرخى لها من اللجام مايحفظ لها عنفوانها لتنطلق بحيوية ، تحت سيطرته ، فى رحلة فنية تبحث عن الفرح من دون يأس .

وأنا أخطو خارج « دروة » داوستاشى أقرأ بيان ريجان ١٤٠٤/٥/٧ الموافق ١٩٨٤/٢/٢٩ فأتمتم : « مشكلة ريجان أنه كان فى فترة وعيه مشغولا بقراءة سيناريوهات السينما فلم يقرأ التاريخ وهو الآن ، مثل مسرحنا تماما ، يخلط بين وهم السينما وحقائق خطوات الإنسان على هذه الأرض . » ورغم هذه التمتمة لا أستطيع أن أتغلب على الصوت الكئيب لدوى مئات القذائف الثقيلة التى تطلقها السفينة نيوجرسى والسفن المساعدة ، حيث تبدو أمريكا وكأنها لم تتعلم من وصمات عارها السابقة فى هيروشيما ونجازاكى وفيتنام ، فأفر من الإضاءة إلى بقعة ظل رمادية لاتكفينى فأهرع لأغطى رأسى باللحاف تماما وأسميها : « دروة اللحاف » آملة أن يكون تابوتى هادئا ثابتا ولو للحظة . وحين أتسلل خارجة من أسرى : أتحرك بصفتى أثيرا لايمكن أن تمتد اليه يد بسوء .

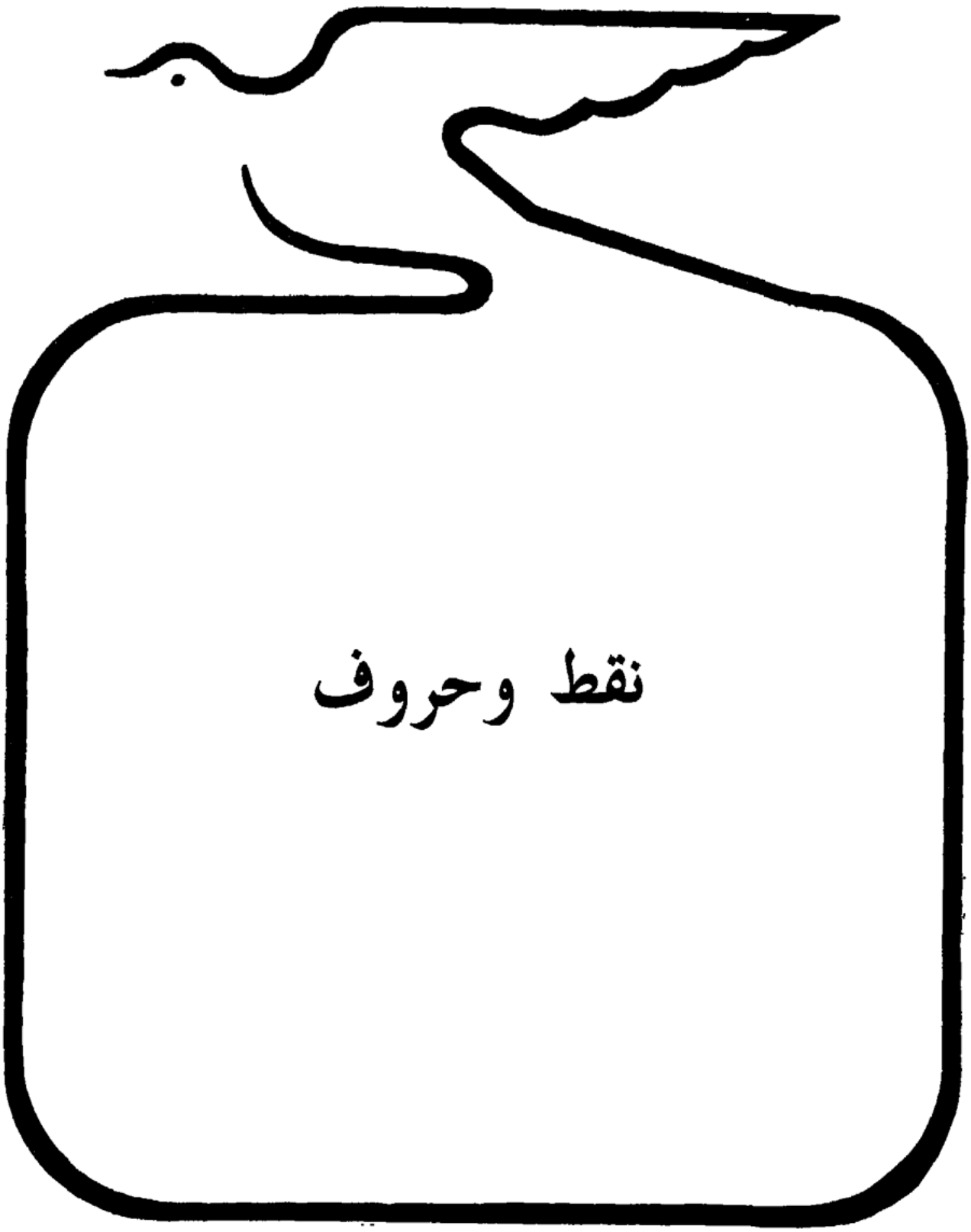
نقط وحروف

نعم وأنا كذلك صرت أخجل من هذه الكلمة . صارت مبتذلة مثل « الفيديو » وفقدت دلالتها الأصلية إلى دلالة توحى بالترف : « اكتئاب » ، نعم أحسه ولكنى صرت أخجل من الكلمة . الأفضل أن أقول : « .. يضيق صدرى ولاينطلق لسانى .. »

تصورتها وليمة دسمة فجلست مستعدة للاستقبال وحولى كل الكتب الجديدة التى وصلتنى بإهداء أصحابها : شعر . قصص قصيرة . روايات . مسرحيات . باهتمام بدأت . بإصرار واصلت . باستماتة صمدت . لافائدة : ملل وانطفاء كامل . لست قاضيا ولكنى : غريقة فى أسف شديد .

* من فضلك : أفندم ؟ ولكن من حقى أن أعبر عن نفسى أحيانا : أقصد من حقى – بعد موافقتكم طبعا – أن أعبر ..

عفوك ؟ إذن فانت ترى ذلك . على كل حال .. بالتأكيد المصلحة العامة تفرض إرادتها وأنا من جهتى نسيت أساسا ماذا كنت أود أن أقول ولكنى أتذكر بإلحاح مقولة خالدة :

« كلماتك سيف إن لم تقطعها قطعتك » .

* قواه الله : لقد احتكر الكلام لسنوات ولايزال يتكلم . عليه فقط أن يدرك أنه لم يحتكر الانتهازية . بقليل من السماحة ، وبالتعود ، سوف يتمكن من رؤية آخرين إلى جواره ، فالأرض قد أينعت الكثير !

* مذهل : فتحت نافذتى هذا الصباح فغرقت غرفتى بالشمس . رجاء تكتم الخبر !

* منعت الرقابة ثلاث مسلسلات لها ، أفلا يكفى هذا لسد الأفواه التى تتساءل عن إيجابيات أجهزة الرقابة ؟

* لست كبيرة الثقة بنفسى ولكنى حاولت أن أتعلم ذلك من القطط : إنها تأتى نحوك وتجلس على الكتاب ، تماما فوق الجزء الذى تقرأه ، أو فوق الورقة التى تكتب عليها ، وتشعرك أنها بذلك إنما تسدى إليك جميلا !

* سألتنى فى أسى بالغ : « أأبدو عجوزا تثير الشفقة إلى الحد الذى يجعل سيارات الأجرة تتوقف كلما أشرت إليها بالوقوف ؟ »

* ثبت أن صديقتنا الوسواسة ليست مريضة بالسرطان ، لكنها ، والحمد لله ، لم تفقد الأمل !

* بذلته دائما أنيقة أناقة سفير شرقى فى عاصمة غربية . وجهه منمنم : أبيض مستدير . يبدو من خلف نظارته كأنه سيدة تركية متقدمة فى العمر تجلس فى شرفتها تطحن بن قهوتها مع الحبهان فى مطحنتها النحاسية الصغيرة ، ولذلك كانت مفاجأة اكتشاف أنه سفاح ، فمن الكتابة ماقتل !

* أواه ياليل .
طال بى سأمى .
وساءلتنى النجوم .
عن شغبى !

* اشتد به الحماس وهو يتحدث عن مشوار الراقصة الفنى الذى أوصلها بالنهاية إلى التربع على عرش الرقص البلدى فقال : « إنها تستحق عن جدارة الشرف الذى بلغته لأنها إنما اعتمدت فى مشوارها على الكفاح والجهد ، والعلم والمعرفة ، فلم يضيع الله عملها وساعدها حتى استطاعت بعون الله ، أن تجمع بين مجهود عملها فى الكباريه وعملها فى السينما والمسرح والتلفزيون ، فتفوقت بهذا على كل راقصات جيلها واستمرت ، حين أجبر الزمن سواها على الاعتزال . » !

* فى معرض دفاعه عن إعلان « الشويبس » الذى نشرته إحدى صحف المعارضة قال :
« .. وبالنهاية فنحن لانستطيع أن ننكر أن الشويبس على يسار « البيبس » !

* ربع قرن مضى منذ أن تخرجت فى الجامعة . ياإلهى : لقد كدت أنسى أننى لم أتعلم فيها شيئا !

* استجمعت نفسى من بين الاستفزازات اليومية . وهأنذا أجلس منصتة ، مستعدة تماما لاستفزازك !

* « .. ولقد صفت روحى واغتسل قلبى ولم أستسلم للحقد مثلك : لقد قتلتك وتسامحت ونسيت ذلك تماما فلماذا لاتنسين ذلك أنت ايضا ؟
أه لو تسامح البشر ونسى المقتول طعنة أخيه ، كما نسى القاتل طعنه للمقتول . ولكن : هكذا القتلى : ذاتيون حقودون ، لاينسون الطعنات وهم لذلك سبب شقاء هذا العالم ! » : هكذا تكلمت « أمينة السعيد » !

* .. ولعلك لاتعرف أنه بفضل الإسلام وجدت القواعد الحالية لعلوم الطب ، ولقد حان الوقت لنتأمل مثل هذه الحقائق ، ففى عام ٩٥٣ ميلادية أرسل ملك الألمان سفيرا إلى قرطبة ، عاصمة الخلافة الأندلسية ، عاش فيها مايقرب من ثلاث سنوات ، تعلم أثناءها العربية بإتقان ونقل مئات المخطوطات الطبية العلمية القيمة التى كان لها الأثر العظيم فى نشر العلوم بأوروبا . كان العلماء المسلمون يقدمون للإنسانية إنجازات ضخمة ، مع أنهم كانوا بنفس الوقت يناقشون موقعة الجمل ويبحثون فى مسألة المسح على الخف ويتكلمون فى نواقض الوضوء . وهذا الذى يدفعنى إلى الاستنتاج بأن تخلفنا الحالى ، فى علوم الفضاء والكومبيوتر ، ليس سببه مناقشة مثل هذه الأمور . بالتأكيد هناك أسباب أخرى ، خاصة وأننا فى الواقع لم نعد نناقش شيئا ! — من بديهيات الرد على زكى نجيب محمود —

* تتلخص الطمأنينة عندى الآن فى : هاتف صالح للاستعمال ، ومذياع ينقل لى الأخبار – عبر قنوات عالمية – ودورة مياه نظيفة بها ماء جار .

* قالت لى الطبيبة : « أغلب الأمر أنك تعانين من ذبحة صدرية ، وعلى كل حال سوف نتأكد أكثر إذا ماثبت أن وفاتك حدثت إثر تعرضك لمثل هذه الأوجاع » !

* « طامة كبرى : فلا يمكن للشهيد أن يحدد نسله » ! هكذا تكلم هولاكو .

* « من الغريب أنك تحدثنى بهذه العصبية : لماذا لاأقهرك ونظل أصدقاء ؟ » هكذا تكلمت أمريكا !

* قالت المذيعة لعسكرى المرور : « هل أنت متعب لأنك تقف ساعات على قدميك ؟ لماذا أنت متعب ؟ هل أنت متعب ؟ لاشك أنك متعب وذلك لأنك تقف بالساعات على قدميك ونحن نشكرك على إجابتك وبهذه المناسبة سوف نقدم لك أغنية طبعا أنت تحبها وهكذا أيها السادة ينتهى لقاؤنا هذا الصباح مع عسكرى المرور الواقف على ناصية شارع زر الطربوش . »
هز المستمع رأسه وقال: « أولا شارع زر الطربوش لايوجد به عسكرى مرور ، وثانيا لايوجد شارع اسمه زر الطربوش ! »

* لم أكن أعرف أن البارون بايرون ، الشاعر الإنجليزى الذى اشتهر بقصائد الحب ، كان قد سافر إلى اليونان فى يوليو ١٨٢٣ لينضم محاربا إلى صف المتمردين الصليبيين ضد الخلافة العثمانية . كل الذى كنت أعرفه أنه كان صديقا

للشاعر شيلى الذى توفى عام ١٨٢٢ ، وأنه توفى بعده بعامين فى مطلع ١٨٢٤ وعمره ٣٥ عاما وأنه قال هذه الأبيات وهو يعدد أسباب حبه لوطنه إنجلترا :

« أحب المناقشات البرلمانية ،
خاصة عندما لاتكون متأخرة جدا .

.....

وأحب الطقس ، عندما لايكون ممطرا ، وبهذا فإننى أحب شهرين من كل عام .

وبناء على ذلك : فليحفظ الله الوصى والكنيسة والملك !
وهذا يعنى أننى أحب الجميع وكل شىء . »

ولقد وجدت أننى حين أقرأ فى شعر الحب عند بايرون لاأرى فيه بيتا واحدا يرقى إلى مستوى الرقة التى تكمن فى هذا البيت الذى قاله شاعر عربى قديم ، لاأذكر اسمه :

« تكاد يدى تندى إذا مالمستها
وينبت فى أطرافها الورق الخضر ! »

محمد إقبال :
شاعر الهند المسلمة

عرفت الهند الإسلام فى القرن الثامن الميلادى حين دخلت قطاعات عريضة من الهنود دين الله أفواجاً . وظل الإسلام فى شبه القارة عقيدة تتنامى بأغلبية سكانية حاكمة ، احتفظت – كعادتها – للأقليات بدياناتهم المختلفة وعقائدهم وطقوسهم المتباينة يمارسونها بحرية كاملة .

ولقد ظل الإسلام فى شبه القارة يقود البلاد ثقافياً وسياسياً مؤسساً فى الهند على مدى ألف سنة قسماً زاهراً من حضارة الإسلام العالمية . وفى مطلع القرن التاسع عشر فرش الاستعمار البريطانى ظله الأسود على شبه القارة الهندية التى اعتبرها فيما بعد أغلى درة فى تاج عرشه . ومنذ الوهلة الأولى عرف المستعمرون الإنجليز المسلمين من الشعب الهندى بصفتهم القوة الأساسية المناوئة لوجودهم على الأرض الهندية ولذلك كانت مهمتهم العاجلة هى ضرب وتفتيت ثم سحق هذه القوة لتثبيت أقدامهم . وبمذابح عام ١٨٥٧ الشهيرة التى توجت سلسلة مذابح سابقة والتى استباح الإنجليز فيها مدينة دلهى وأبادوا فيها أحياء كاملة للمسلمين ثم أقاموا بعدها المشانق لمدة سبعة أيام نفذوا خلالها أحكام بإعدام ٢٧ ألف رجل وشاب مسلم ، بهذه المذابح أثبت الإنجليز للشعب الهندى ، وللمسلمين منهم خاصة ، أن الهند صارت لهم تنفيذا لقول قائد المذبحة روبرتس : « إن هدفنا أن نثبت للمسلمين الأشرار أن الإنجليز هم سادة الهند » .

ومنذ ذلك التاريخ نجح الإنجليز فعلاً فى تحقيق سياستهم للإخلال بموازين

القوى بين طوائف الشعب الهندى وفى قنص المسلمين بالذبح والإبادة المستمرة حتى تحول مسلمو الهند من أغلبيه حاكمة ومسيطرة ثقافياً إلى أقلية محكومة مبعدة عن الساحة تسبقها غالبية هندوسية متغلغلة مع السيخ فى كافة مفاتيح الإدارة الإنجليزية الحاكمة . وتحولت صورة الهند على مدار سنوات تعدت القرن لتوضح التحالف التاريخى لتلك المرحلة بين الإنجليز والهندوس لقمع أى نهضة أو مقاومة إسلامية على الأرض الهندية التى تشهد آثارها الإسلامية حتى الآن على أنها كانت أجمل عصور الهند الذهبية فنا وثقافة وعلماً وكرامة للإنسان . وحين آذنت شمس الإمبراطورية البريطانية بالمغيب ، كانت الخطة الإنجليزية لتسليم الهند إلى طائفة الهندوس قد أحكمت ليرى المسلمون أنفسهم على وشك أن يتخلصوا من جلاد إنجليزى ليقعوا تحت رحمة جلاد هندوسى لايرعى فيه إلاًّ ولاذمة . ورأى المسلمون كيف تتم حركة الالتفاف فى لجان كتابة مسودة الدستور الهندى ليتحول من دستور للهنود كافة يرعى ويحمى جميع طوائفهم ليصير دستوراً هندوسيا منحازاً لطبقة البراهما – طبقة الهندوس العليا – وليحول بقية الشعب الهندى إلى « منبوذين » بلا حقوق . وهنا كان لابد أن ينبثق من ضغط الاضطهاد والخوف والضياع مطلب إقامة دولة لمسلمى الهند تضمن لهم حفظ دينهم وأرواحهم أمام الدعاوى والصيحات الهندوسية التى خرجت عن نطاق العقل وأطلقت مقولتها الجبارة : « لكى تكون هندياً لابد أن تكون هندوسياً ! » – وفى تلك المرحلة السابقة لاستقلال الهند وقيام دولة باكستان الإسلامية عام ١٩٤٧ ، ولد وعاش ومات « محمد إقبال » هندياً مسلماً ، وبزغت عبقريته الشعرية النادرة لتكون صرحاً آخر من صروح حضارتنا الإسلامية على أرض شبه القارة الهندية . ولذلك عجبت حين قرأت لأحد الزملاء الكتاب تعريفاً بمحمد إقبال ، بمناسبة مرور ١٠٧ سنه على ذكرى مولده ، يسميه « الشاعر الباكستانى » و« محمد إقبال » قد توفى إلى رحمة الله عام ١٩٣٨ ، أى قبل قيام باكستان بتسع سنوات !

كان « إقبال » يرى أن ثقافة الإسلام وحضارته لايمكن أن تزدهرا فى ظروف غير إسلامية ، وباعتقاده أن « الإسلام » هو « حرية » المسلم وقف عام ١٩٣٠ فى مدينة الله آباد يلقى خطابه الجياش الشهير أمام جماهير رابطة كل مسلمى الهند ويعلن : « .. إن حياة الإسلام كقوة ثقافية فى هذه البلاد تعتمد بقدر كبير على تركيزها فى إقليم خاص وعلى ذلك فإن مطلب المسلمين لإقامة هند إسلامية داخل الهند مطلب مبرر ... وإننى حين أطالب بتكوين دولة إسلامية موحدة أنظر إلى صالح الهند والإسلام ... وتذكر أيها المسلم أنك فى العبودية قطرة ، لكنك فى الحرية محيط كامل .. »

وفى دراسة جيدة قرأتها للباحث الباكستانى « محمد شريف باقه » ، سكرتير مجلس إقبال بالمملكة المتحدة ، يقول الباحث إن إقبال « ... أراد لمسلمى الهند إقليماً مستقلاً يمكن فيما بعد أن يكون نقطة بداية لوحدة إسلامية أوسع وقوة عالمية لتقدم البشرية بأكملها ... ودعا الدول الإسلامية إلى النهوض لنفض الإستعمار عن كاهلها ومعه السيطرة الثقافية الغربية . وكانت دوافعه للمناداة بإقامة دولة إسلامية مستقلة فى الهند تتلخص فى :

١ – إنهاء السيطرة الاقتصادية والسياسية الأجنبية .

٢ – حماية الثقافة الإسلامية .

٣ – تطبيق الشريعة الإسلامية .

٤ – إقامة دولة وفق التصور الإسلامى تجاهد فى سبيل عالمية العقيدة القرآنية ...»

وهكذا نشأت « باكستان » الشاسعة أولاً فى عقل وقلب وصدر الشاعر « محمد إقبال » كرؤية شعرية مثالية باعتبارها حيزا هنديا لهنود مسلمين يحررونه بالإسلام وكانت هذه الرؤية هى رسالته المقدسة التى نذر لها نفسه ، منذ عودته من دراسته فى أوروبا عام ١٩٠٨ ، داعية ومعبراً عن الثقافة الإسلامية السياسية

يقول بلسان كل مسلمى الهند : « أبى الإسلام لا أب لى سواه ! »

ولقد كان من اللطيف جداً أن تهتم نقابة الصحفين وتقيم احتفالاً بذكرى مولد إقبال تحشد له العلماء والمتخصصين للحديث عن إقبال والتعريف به . ولقد كنت حريصة على حضور هذا الاحتفال رغم مايكتنف مشروع الخروج من المنزل من مشاق وأهوال . وأعجبنى أن أجد القاعة غاصة بالحضور وقلت لاشكّ أن جلبتهم وضوضاءهم سوف تخفت حين يبدأ الحفل لكن هيهات : فمن ذا الذى يمكن أن يسكت النساء الأديبات اللاتى حضرن لأخذ راحتهن فى الكلام مع بعضهن ؟ . كانت الكلمات القيمّة للأساتذة المتخصصين تدور خافتة أمام ميكروفون فاشل وبعض الطلاب يجلسون حولى فى إحباط يحالون عبثاً صيد معلومة ما يدونونها للإفادة حين الاستعادة ، لكن هيهات والنساء الأديبات البدينات لاحد لفظاظتهن ولا رادع لجبروت طنينهن المشوش على الأصوات المهذبة الخافته للأساتذة المتكلمين بلا ميكرفون . وتلفت إلى اليسار الخلفى للقاعة فوجدت سماطا ممتداً بالحلوى والأطعمة فعرفت سر حضور هؤلاء البليدات ، وكان لابد أن ينتصرن علىّ فلملمت جراحى وخرجت أنشد شعر إقبال مترجماً بالصياغة المخملية للصاوى شعلان :

شكواى أم نجوْاى فى هـذا الدجـى
ونجـوم ليلـى حُسّدى أم عُـوّدى ؟
أمسيت فـى المـاضى أعيش كأنمـا ،
قطع الزمان طريق أمسى عن غـدى .
والطيـر صادحـة علـى أفنانهـا ،
تُبكـى الرُّبـا بأنينهـا المتجـدّد .
قـد طـال تسهيـدى وطـال نشيدهـا ،
ومدامعى كالطل فى الغصن النَّـدى .

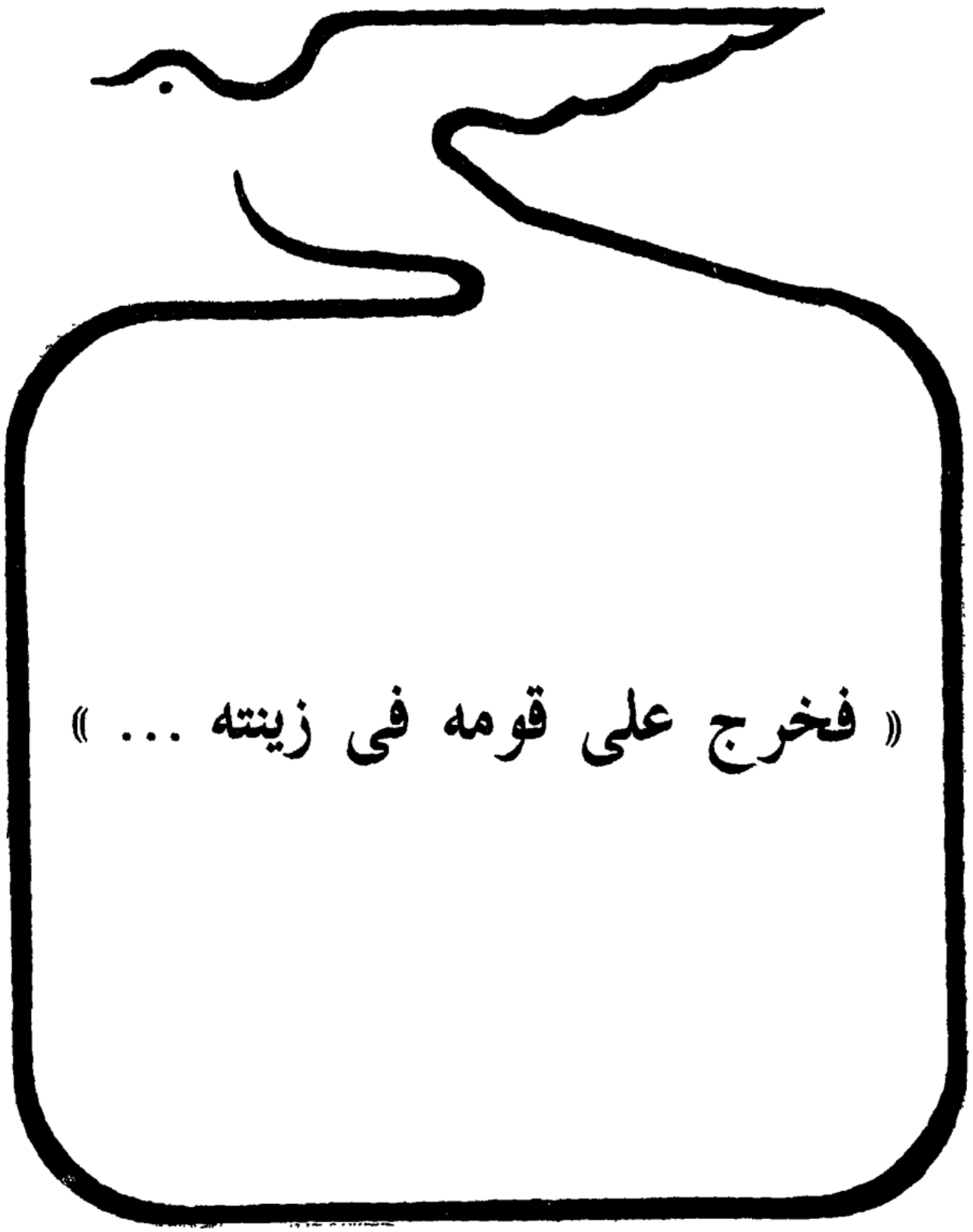

« فخرج على قومه فى زينته ... »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثلَ ماأوتىَ قارون إنه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولايلقاها إلا الصابرون (٨٠) فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين (٨١) وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون ﴾(٨٢).

صدق الله العظيم / القصص .

أم المجاهدين : أم خالد : السيدة قدرية :

كنت أسير ذات صباح قاطعة الشارع متوجهة إلى شارع عبد الخالق ثروت : فى الممر الضيق تقابلت وجهاً لوجه مع سيدة تلبس زياً إسلامياً فضفاضاً أسود وكان الخمار أبيض أو شبيه ذلك . شىء فى قلبى قال : هذه أم خالد – (فقد كان الوجه جميلاً مضيئاً قويا كالوجه الذى أتخيله لجدتى زينب أخت جّدى الحسين – طيب الله ذكراهما العاطرة .) – وعندما قررت التوقف للحاق بالسيدة – التى ظننتها أنت – كانت قد عبرت الشارع ودخلت ممر الكونتنتال . لحظتها قلت : قد تكون السيدة أنت وقد لاتكون لكننى قطعت بقية الطريق أفكر فيك . والحقيقة أننى لم أتوقف أبداً عن التفكير فيك : يلازمنى الشوق الدائم إلى لقائك والانحناء لتقبيل يدك : هذه اليد التى هدهدت « خالد » وأطعمته وسقته ومسحت على رأسه .

لم أحدد ماالذى أود أن أقوله لك حين أقابلك : غالبا توقى هو الاستماع إليك .

عندما نقلونى إلى زنزانة الحبس الانفرادى – بعد عودتى من التحقيق – ٧ ذى الحجة ١٤٠١ الموافق ٥ أكتوبر ١٩٨١ قلت لمأمور السجن : هل تتصور أن هذه العقوبة سوف تُنغّص علىّ العيد القادم ؟ ثق أن الذين يريدون أن يحرقوا قلوبنا سوف يحرق الله قلوبهم . هذا العيد لن أبكى : سيصبرّ الله فراقى عن طفلتى النوارة ، لكننى على يقين أن الذين يكيدون لنا سوف يحبط الله كيدهم بل سوف يبكون هُم هذا العيد وسوف ترى : لن يبقى منهم أحد فى بيته يحتفل مع أطفاله !

لم أكن أهدّده : كانت تتملكنى ثقة غريبة أن ماقلته سوف يتحقق بالحرف الواحد . ودخلت الزنزانة القبيحة التى أضافوا إلى دمامتها سلكاً ضيّقاً فوق القضبان – خوفا من تسرّبى منه ! – أما طاقة الباب فقد سدّوها بقطعة خشب إمعاناً فى السّماجة حتى لاأتمتع بالنظر إلى الممر – (الحق الذى كانت تتمتع به « هبه سليم » جاسوسة إسرائيل المجرمة التى تسببت فى مذبحة أطفال مدرسة بحر البقر والتى كانت تقطن نفس الزنزانة بعد الحكم عليها بالإعدام ١٩٧٣/٥) –

●

جلست متوجهة صوب القبلة وقلت : ياربى أنت لن ترضى أن نكون نحن الكلاب : أبداً لن ترضى ! – (وكانت كلمة السادات المنكرة عن الشيخ المحلاّوى : « أهو مرمى زى الكلب !» تعطينى المعنى الوحيد لمدلول القرار بإلقائى فى زنزانة الحبس الانفرادى المزرية .) –

كان الوقت عصراً وكنت صائمة ولاأتذكّر أننى نمت حتى شروق صباح ٨ من ذى الحجة العظيم ١٤٠١ الموافق ٦ أكتوبر ١٩٨١ المجيد . كنت قد ابتهلت طويلاً إلى الله وتضرّعت ودعوته برحمته التى كتبها على نفسه أن يقتص لنا ويشفى صدورنا ويذهب غيظنا . وبعدها غفوت حتى أخذنى النوم إلى الظهيرة ، ولم أجد نفسى إلا مستيقظة على مفتاح السجّانة تفتح بابى وتوقظنى والفرح يغمرها : « اصحى ... اصحى ياحاجّة السادات انضرب : مش بقول لك ربنا كبير ؟! »

آه : أروع شىء فى سجون مصر سجّانوها !

يأتون من شريحة الشعب المستضعف يسكن قلوبهم – رغم كل شىء – حب الإسلام والطيبة المصرية التى لايمكنها أن تُتقِن القسوة .

نهضت وأمسكت يدها : هل مات ؟

قالت فى عجل وهى تضحك : إن شاء الله !

سجدت ودعوت الله أن يكون الفاعل من مجاهدى الإسلام .

الحقيقة أننى لم أتصور أى احتمال آخر .

ليس هناك أحد جدير بهذا الإقدام الإنسانى الرحيم إلا « مسلم » : ولم نكن قد عرفنا بعد أنه – كذلك – « إسلام بولى » !

استمر جو السجن فى هزّة من الفرح المتوتر . ثم جاءت الأوامر بإغلاق جميع الأبواب مبكراً وقد سادت حالة طوارىء مكثّفة . وكانت المسجونات الجنائيات فى جرائم القتل والمخدرات والسرقة والدعارة .. الخ يتمتعن كلهن بميزات حرّية اقتناء الراديو والتلفزيون وكافة الأشياء المحّرمة على السياسيات المحجوزات تحت لافتة « جرائم الرأى » ! – (باعتبار أن الرأى فى النظم اللاإسلامية جريمة أكثر خطراً من القتل والسموم البيضاء والنهب والبغاء !) – وكان تعاون الجنائيات معنا أكثر رحمة وتعاطفاً من تعليمات الأجهزة المتسلطة ، وراحت كل واحدة تتابع لنا من قناة مختلفة آخر أخبار التطورات ، فى حالة « عدو الله » ، وينقلنها لنا نداءات عبر نوافذ العنابر والزنازين حتى جلجلت فى الفضاء – مع آذان المغرب – صيحة : « مات » !

تشبثت بالأسلاك المنسوجة بين القضبان واعتليت النافذة ولم أجد هتافاً أروع من « الله أكبر ، الله أكبر » ولم أجد أغنية سياسية – فى كل الأغنيات التى أعرفها – تعبّر عن حالنا جميعاً إزاء غيث الرحمن الهاطل مُغدقنا رحمة من حيث لم نحتسب سوى :

« الله أكبر كبيرا
والحمد لله كثيرا
وسبحان الله
بُكرة وأصيلا نصر عبده
لا إله إلا الله وحده وأعزّ جنده ....»

سكتت كل الهتافات ، وصمتت كل الأغنيات ، وانفرد صوتى – وقد قوّاه الله – عريضاً جياشا بـ « الله أكبر كبيرا » يُغطّى سماء السجن : يلف أرجاءه ، يلقف الصمت والخوف والتوتّر ويعود إلىّ حاملاً بكاء الراحة : حتى القاتلات بكيْن وحتى البغايا خشعن !

هرعت إلىّ سجانة الليل بأمر من « النوبتشية » بالسكوت عن الهتاف فوراً ، لكنها بدلاً من تبليغى الأمر تسلّقت نافذتى من الخارج وراحت تُدس لى – عبر الأسلاك – قطعة من الحلوى !

آه يا أم خالد : فى تلك اللحظة قفزت إلى ذهنى واحتللت قلبى كلّه . لم أرث لك : حسدتك ! ولاحسد إلا فى مثل الشرف الذى خصك به الله سبحانه وتعالى !

أمسكت بالملعقة وحفرت على جدار الزنزانة بخط كبير :

« القوة لله جميعاً .»

« الله أكبر : ٨ ذو الحجة ١٤٠١/ ٦ أكتوبر ١٩٨١ .»

●

وتزاحمت الصور والمواقف والأصوات فى خليط من : « لن أرحم » ، « لأغرينّك بهم » – (محرفا الآية الكريمة ليكون المعنى التنكيل بالمسلمين .) – ، « صديقى بيجن » ، « قلت لأمريكا حاولى مرّة أخرى اضربيهم ولاتيئسى وعندى لك التسهيلات » – (بعد فشل العملية الأمريكية الدنيئة لتخليص الجواسيس الرهائن بالقوة .) – ، « الخمينى مشكوك فى إسلامه » ، « الشاه أخى المسلم ! » ، « فرح ديبا وجيهان والشاه وهو فى صورة وهم يسيرون سوياً مبتسمين فوق شفاه الشعب المصرى . » ، « أنا بعت أسلحة لصدّام » ، « لا دين فى السياسة ولاسياسة فى الدين : لن أسمح ! » ،

« جنازة للشاه تسير فوق أنف الشعب المصرى . » ، « المحلاّوى فاكر نفسه زعيم : أهو مرمى زى الكلب ! » ، « جيهان تفتى بأن الحجاب خروج عن الإسلام والإسلام منه براء ! » ، « بيضة الثعبان ابن الشاه الهالك يعلن – بدعم كلّى نشط من السادات – فى ١٩٨١/٨/٥ أنه قد أعدّ العدّة للعودة إلى إيران ! » – لاسمح الله – ... « شماتة سادية فى استشهادى محمد على رجائى ومحمد جواد باهونار فى ١٩٨١/٨/٣٠ » ... أكوام من السخام والقمامة والنفايات بدت فى زمانها كأن لانهاية لها : لكنه الله الغالب دائماً وأكثر الناس لايعلمون .

جاء العيد : بأمر فيه تجديد ! وأذيعت الأسماء وتوالت الأنباء « والجثة » فى الثلاجة لايعرفون كيف يخرجون بها لدفنها !

وأمام كاميرات التلفزيون خرج الأقمار المقدمون للمحاكمة يضحكون ويهتفون :

فى سبيل الله قمنا
نبتغى رفع اللواء
لا لأرض قد عملنا
لا لحزب قد سعينا
نحن للدين الفداء !

النور ينهمر من الجبهات الشامخة والوجوه مضيئة والراحة تسكن العيون فقد تم أداء : الفريضة الحاضرة !

تأملوا فى تدبير صُدفة مدلولات الأسماء ، بالإضافة إلى « خالد » و« الاسلام بولى » : « عبد الحميد عبدَ السلام » : الحمد والسلام ،
« عطا طايل » : العطاء والنّيل ،
« حسين عباس » : الحسين رمز الشهادة والفداء ، ثم :
« محمد عبد السلام فرج » : الله أكبر !

●

أتتبع أخبارك وأقوالك وقوتك العزيزة ويأكلنى الشوق إلى لقائك ياأم خالد حتى أهدانى الله عنوانك .

يحذرونني أن هاتفى مُراقب وأن هناك من يتبعنى حيثما أذهب ولكنى آتية إليك بلهفة وخطوات ثابتة .

أأخاف أنا المجىء إليك أنت ؟
حاشاى !
وهل يجتمع فى قلب مسلم إيمان وخوف ؟
وممّن ؟
ألم يثبتها خالد وعبد الحميد وعطا وحسين ؟

– (قال خالد : عندما رآنى ياأمى ، قال : « ماتموتنيش ... ماتمّوتنيش .. الحقونى ! » فقلت : « احنا كلاب ياكلب ؟ إحنا كلاب ؟ إحنا شرذمة ! ») –

●

أجلس فى حضرتك وإشعاعات النور تنهمر من وجهك وإبتسامتك وكلماتك : تماماً أنت السيدة التى رأيتها فى الشارع ودلّنى قلبى أنها أنت .

لاتأذني بحديث صحفي لساحة كل المسلمين حتى تستأذني زوجك الفاضل . لكنى أجد نفسى فى فيض من الكلمات الجياشة : منك ومن بناتك . لا أتمالك نفسى وأبكى وتبكى ابنتى فتربتين أنت على كتفى وتطلبين منى الصبر : « لاتبكى .. لاتبكى .. خير والله خير فهم جميعاً أحياء فى الجنّة ! » وتأخذ ابنتك ابنتى لتهدىء من بكائها .

●

– « هذه ابنتى سمّية التى ظنوها زوجة خالد ! خالد لم يكن خاطباً ولامتزوجاً . وهذه ابنتى الكبرى أنيسة : خرج زوجها ووالد زوجها من المعتقل أخيراً والحمد لله . أنيسة الكبرى ، ثم محمد – الذى أذاعوا نبأ الإفراج عنه لكنه مازال بالمعتقل منذ ١٩٨١/٩/٢ ، ثم سمية – وقد أفرجوا عن زوجها كذلك وهو إبن أختى – ، ثم خالد أصغرهم مولود ١٩٥٧/١١/١٤ .

– « قال لى : ياأمى هل تذكرين الآية الكريمة :

﴿ وإذ يُريكُمُوهم إذ التقيتم فى أعيُنكُم قليلا ويُقلّلكم فى أعيُنهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله تُرجع الأمور ﴾[1] هكذا تماماً أعمى الله أعينهم عن تفتيشى رغم أنهم فتشوا كل العربات الأخرى . وعندما أوقفت العربة وسرت إلى عدو الله لم أر أحداً سواه : كأن أمامى خلاء لايوجد فيه سواه وتقدمت منه بثقة ورأيته ضعيفاً مرتجفاً وقلت له : إحنا كلاب ياكلب ... ورأيت وأنا عائد عبد الحميد يضحك فقلت له : لماذا تضحك ؟ فقال : لأدرى كأننا فى نزهة ! وعندما نقلونى إلى المستشفى قالوا لى : لاتخف السادات لم يمت ! فقلت لهم : أنا واثق أنى أعدمته ومع ذلك إذا كنت قد فشلت هذه المرة فسأحاول مرة أخرى !

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال

– « قلت له : رأيت رؤيا ياخالد وأنا أقول :
أنا أم خالد عابد الرحمن
أنا أم خالد قاتل الشيطان
أنا أم خالد قاتل الطغيان
سمونىَ الخنساء أم الأربعة :
خالد وعبد الحميد وعطا وحسين !
فكتب لى قصيدة يرد بها على كلامى :

أنا خالدٌ عابد الرحمن
أنا خالد قاتل الشيطان .

●

– « كان صائماً عند لحظة تنفيذ الحكم وكانت الساعة الرابعة والنصف وطلبوا منه أن يفطر لكنه قال : سأفطر عند لقاء الله : ربى سيطعمنى ويسقينى : وتقدم من الجنود الموكل إليهم تنفيذ الحكم وسألهم : هل أنتم مقتنعون بما سوف تعملون : فقالوا : لا ! فقال لهم : لابأس عليكم : غفر الله لكم . ورفض أن يوثق أو توضع عصابة على عينيه . كان فى شوق للقاء الله .
وصلى ركعتين بالبقرة وآل عمران . كانت أيامهم الأخيرة كلها صياماً وقياماً والحمد لله .

– « تألم من الكلمات التى صرّح بها الشيخ عمر التلمسانى بخصوصهم وأرسل إليه خطاباً يعاتبه : ويقولون:إن الشيخ عمر بكى بكاء مُراً وقال : لم يكن باستطاعتى غير ذلك ! ولم يفهم خالد لماذا لم يكن باستطاعته !

– « كان من حقى أن أراه قبل تنفيذ الحكم : لكنهم لم يخبرونى . وكان من حقه أن يرى والده وأخاه لكنهم لم يؤدوا إليه حقه . يوم التنفيذ كان الأربعاء ١٤ إبريل ١٩٨٢ – وذهبت الخميس إلى السجن الحربى دون أن أدرى ووجدتهم جميعاً منكسى الرؤوس : ورأيت أحد المحامين ينادينى قائلا : مبروك ! لحظتها شعرت كأن روحى عصفور يخرج من فمى وكأنما أطبق على قلبى خائط من رُخام : فأشرت إلى زنزانة خالد وناديته : إحتسبتك عند الله ياخالد شهيداً فى الجنّة ! وسلّمونى متعلقاته : ساعة وتسعة جنيهات . قبلها كنت قد رأيت رؤيا : أنا وشقيقتى نسير صوب حوض أخضر وأنا أسألها : يعنى إيه الفريضة الغائبة ؟ وعند ذلك سمعت صوتا من خلفى يقرأ : ﴿ **آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله لانفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ وظلّ الصوت يردد فى امتداد وتكرار : غفرانك ربنا .. غفرانك ربنا وعندما استيقظت أيقنت أن الحكم سينفذ . وعندما قصصت الرؤيا على خالد : سعد بها سعادة كبرى وقال : الحمد لله !

– « أحد المراسلين الأجانب سأل المدّعى : لماذا فعل خالد وإخوته مافعلوه وهم يعلمون أنهم لن ينالوا سُلطة أو مكسباً ؟ فقال المدعى : لاأعرف . فقلت له : لكنى أعرف : لقد فعلوا ذلك لأن الله سخّرهم لتنفيذ حكمه فى عدو الله »

–« فى صباح اليوم التالى لتنفيذ الحكم مات الضابط الذى كان واقفاً يشهد عملية التنفيذ . وجاءت زوجته تحتج وتصرخ : لماذا اخترتموه لهذه المهمة التعسة : ماذا أفعل الآن : الشهداء مطمئنون أنهم فى الجنّة لكنى غير مطمئنة على مصير زوجى ! »

أدعو الله لكُن – أمهات الشهداء وزوجاتهم – أن يربط الله على قلوبكن ...

– « اطمئنى : ماشاء الله على زوجة محمد عبد السلام فرج وعبد الحميد وحسين عباس وماشاء الله على أمهاتهم وأم عطا طايل . قلنا لخالد : قالت لنا واحدة إنها فكرت جدياً فى أن تفعل مافعلتموه :
فقال خالد : لماذا ؟ أليس فى مصر رجال ؟

–« خطاب من خالد وبقية الشهداء يتبرؤون فيه من كل محاولة لتصوير عملهم فى غير إطاره الإسلامى وغير سبيلهم الخالص لوجه الله سبحانه وتعالى : أرادوا أن يصوُروا خالد كأنه ناصرى أو قومى ! »

●

مضت الساعات فى حضرتك سريعة خاطفة وعلى وعد بلقاء آخر أجبرت نفسى على النهوض للانصراف .

هذا ١٤ إبريل ١٩٨٣ الذكرى الأولى للشهداء أولادك الخمسة ياخنساء لا الأربعة : خالد ، وعبد الحميد ، وعطا ، وحسين ، ومحمد :

وهذا إبريل ١٩٨٣ – ولاندرى فى أى يوم منه – الذكرى الثالثة للشهيد « محمد باقر الصدر » – الذى حدثتك عنه وعن أخته الشهيدة « آمنة » بنت الهدى وأمهما الصابرة « بتول » . قلت لك : استدعاه السفّاح صدام حسين وخيّره بين إعلان إدانة الثورة الإسلامية فى إيران أو القتل ، فقال العلاّمة الآية العظمى « محمد باقر الصدر » :
لقد توضأت قبل المجىء استعداداً للقاء الله ! وسألهم أن يذبحوه كما ذبحوا الحسين – هم أنفسهم قبل قرون – وبعدها بأيام استدعوا شقيقته العالمة المجاهدة آمنة وقالوا لها : شقيقك يطلبك ! وفعلاً ألحقوها بشقيقها الشهيد : شهيدة ! وأضاء وجهك ياأم خالد وأنت تستمعين مرددة على التوالى : « ماشاء الله ... ماشاء الله ! »

نعم : ماشاء الله !

ماشاء الله على هذه الأمّة التى – لكى تنهض – تقدّم يومياً – ومن طنجة إلى جاكرتا – الآلاف من الشهداء على طريق دين الله ...

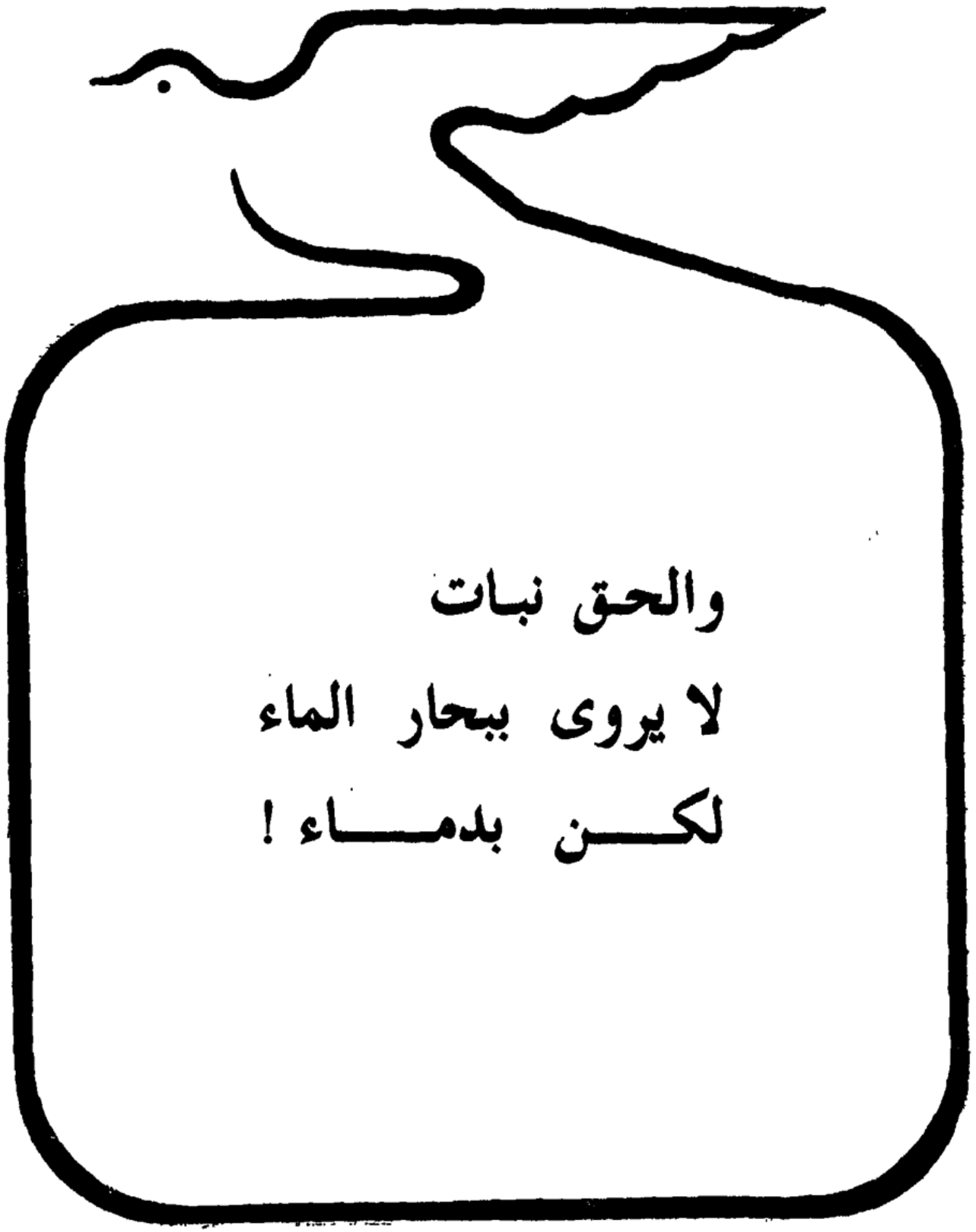
والحق نبات
لا يروى ببحار الماء
لكـــن بدمـــاء !

عاجزة تماما عن الكتابة . عاجزة حتى عن جمع قصاصات تشاركونى فرحها أو استفزازاتها. كنت أؤجل الكتابة طوال المدة الماضية . تسألنى لماذا لاأكتب عن فلسطين . ألم أكتب عن فلسطين ؟ كل سطر كتبته كان لفلسطين ومن فلسطين : فآلامنا تبدأ وتعود من وإلى فلسطين . ومافلسطين إلا الأندلس : وحرب الطوائف كان ينقصها اقتتال الفلسطينيين : وها قد بدأ : دمويا ، همجيا . لاعذر فيه لأحد : لاعذر لمن تسبب فى بكاء الهلع المرسوم على وجه طفل مخيمات البداوى ، طفل فلسطينى فادح الجمال وفادح الألم : هذا الطفل لم يجد طرفا عنده رحمة الأم فى حكاية النبى سليمان القديمة : لم يجد طرفا يتنازل عن حقه (إن كان هناك حق) فى سبيل ألا يشطر جسده الطرى الصغير بالفزع والهلع وشظايا الصواريخ ! لكن هذا ماكان يجب أن ننتظره فى نهاية طريق خلا منه الإسلام . « دولة علمانية فلسطينية ! » كان لابد أن تسقط هذه الراية على أدمغة من رفعوها لتسقيهم من كأسها دماءهم ! ما أبشع الكفر ! ﴿ ... **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها** ﴾ !

● أستجمع نفسى من بين الاستفزازات اليومية أحاول أن أكتب وحين أفعل ذلك أكون قد وقفت أمام نفسى عند نفسى ولحظتها أجد ابتلاع ريقى صعبا . أكتب فلا تقرأنى إلا « نخبة ! » تكتب هى بدورها – فلا أقرأها إلا تهريبا ! وهكذا تقف الكلمة الإسلامية الصادقة فى « زور » هذا الزمن الاستفزازى .

● الإسلاميون داخل الأرض المحتلة : معتقلون ومسجونون ومحددة إقامتهم ومطلق عليهم الرصاص . و « السماوى » فى « كنانة الله » داخل زنزانة حبس انفرادية – لاتصلح لأدمى – محروم من أبسط حقوق السجين السياسى والجنائى : محروم من حق العلاج من ألام الكلى الرهيبة . الإسلاميون على كل الأرض الإسلامية يمدون أياديهم – عبر قضبان سجونهم – ليشدوا على أيدى إخوانهم خلف قضبان السجن الإسرائيلى ، ووجه السجان الإسرائيلى يطل علينا من وراء أقنعة رموز القمع « الوطنى » على بقية الأرض الإسلامية .
و « الروتارى » فى جريدة الأهرام تعلن عن اجتماعاتها أسبوعيا حول متحدث مسئول فى منصب هام فى الدولة . إجتماع « الليونز » فقرة هامة فى نشر الأخبار يرأسه وزير الإعلام ، وصوت إسلامى خافت يصيح ، من زاوية جريدة إسلامية منزوية وهادئة يصيح :« الروتارى ماسونية والليونز ماسونية والماسونية عدو وخراب . . . عدو وخراب . . . عدو وخراب ! » فتشحذ الأقلام فى حملة ضاربة على هؤلاء ، « المتخلفين » الذين يلبسهم « شبح الغزو الفكرى » ، ويقايا عقلية « الاستعمار العثمانى » وعدوان « الاستعمار العربى للأندلس » ، وتلوح الأقلام « الحرة » بما يفيد بأن السجن لايكفى للإسلاميين فالضرورة تستوجب إعادتهم إلى « الكهف » الذى جاءوا منه ! – (انظر مقالات د . زكى نجيب محمود ود . نبيل راغب ود . عاطف العراقى بالأهرام ومقالات د . لويس عوض وحسين أحمد أمين بالمصور وترهات وهذيان توفيق الحكيم فى كل مكان تنظر فيه حولك !) – ...

● فى قلب شعارات « الحرية » و « المزيد من الحرية » و « الديمقراطية » « والمزيد من الديمقراطية » و « المعارضة وأهلا بالرأى الآخر ! » أبحث عن « حريتى » و « حقى » و « رأيى الآخر » فلا أجد إلا « حريتهم » و « ديمقراطيتهم » و « رأيهم الأول والأخير ! » وكمحاولة لكسب الأسد داخل « القفص » – بالتلويح بلحم الغزال – لاتسكت الوعود المبذولة للإسلاميين بأن صحافتهم ، إن شاء الله ، سوف تعود . وخشية أن تتبخر الوعود يرضى الإسلاميون ، من حيث المبدأ ، أن يمسكوا بها سراعا عند منتصف الطريق : يقدمون خطوة فخطوات والوعود المبذولة تتراجع خطوة فخطوات حتى تراجعت بحساب الزمن : ما يقرب من العامين : صدرت فيهما ثلاث صحف معارضة علمانية وصحف « ضرار » إسلامية يسود أغلب صفحاتها علماء « الحيض والنفاس » . ولايزال الإسلاميون يجهدون أنفسهم بحثا عن نقطة « النصف » فى المسافة .

● تأتى مجلة إسلامية طليعيّة لتصدر منذ عام « ضرورة » مغتربة تحلق فى عالمية الإسلام فتتربص بها حدود الأقاليم ! تدخل الصحف كلها من طاقة « حريتهم » و « ديمقراطيتهم » : تدخل صحف « إسرائيل » ، خارجة من الوطن الذى تحتله ، ويرتفع ترحيبنا بالرأى الآخر إلى حد ترجمة مقال لصحفى إسرائيلى تنشره إحدى المجلات ، لكن هذه الطاقة ، التى دخل منها الجمل – والبغل والحمار أيضا – تضيق بساحة المسلمين حتى لايكاد الخيط يمر رابطا القلوب ومجمعا العقول حول قضية دين الله فى عصر الخسر العالمى حيث ترفع أمريكا هراوتها لتضرب من شاءت كيفما شاءت ومتى شاءت !

● الجشد العلمانى يتضامن – بكل أضداده وتناقضاته – ليقف كتابه – فى الحكومة والمعارضة – صفا أمام النبض الشعبى الذى لايريد أن يتزحزح عن

إسلاميته ، فهو رغم خرسه لايزال بالشارع يملك عينين تنظر شذرا ، ورغم استئصال « حماسه » بتهمتى « التطرف » و « الإرهاب » يقدم « فتوره » خطا دفاعيا ثانيا أو ثالثا : لكنه ليس الأخير .

● يأتى عيد ميلاد خالد الإسلامبولى السادس والعشرين يوم ١٤ نوفمبر وعند أم خالد أروح وتدفع إلى بورقة شعر تكاد تمحى حروفها بقع الدموع . جاءتها مع مجموعة بطاقات مهربة من وراء القضبان وأقرأ :

– أمى خنساء هذا العصر أم خالد
«تعالى أم خالد وانظرينا
فما بلغت سياطهم مرادا
وما هزت سجونهم ثباتا
وما قتلت مشانقهم يقينا ! »
غـــدا إن شاء الله ، أم خالـــد ، نعـــود ويعـــود بنـــا دينا ! « ابـــــــــــــــــــنك . . . . »

– «رويدك أم خالد علمينا
إباء المجد ثم وخبرينا
وهزى فى موات الذل
إنا كرهنا الذل كأس الخاضعينا
وصبرا أم خالد لاتراعى
فخالد لايزال يصول فينا
ويهتف فى سبات النائمينا
ألا إن الجهاد الحق دينا
رويدك أم خالد سوف نمضى
مسيرة ألف خالد زاحفينا

ويقتحمون حصن الكفر جندا
ألا ما أقرب الفتح المبينا ! »
نعم ما أقرب الفتح المبين . . كم قرب الله بخالد هذا الفتح المبين . . . .
« ابنك . . . . »

– ترنيمات فى ذكرى الثامن من ذى الحجة :

١ – الناس نيام ، ورياح هوجاء تعصف ، تحمل أحجارا وتراب ، قد اصبح بيتى عريانا فى عين الناس ، كسر الشباك ، وانفتح الباب وكذلك كل بيوت القرية ، أضحت أطلالا ، فالريح شديد ، لايستر بيتى عن قومى ، غير الظلمات ، فنهار بلادى قد أضحى كالليل الدامس ، وسماء بلادى قد غابت عن عين الناس ، والسيل العارم لايعبأ بصراخ الناس ، يالهف فؤادى ، فضمير المسلم لايهدأ فى تلك الحال .

٢ – الظهر يؤذن ويدوى فى كل مكان ، والناس نيام ، يالهف فؤادى ، أمجاد الماضى تناديني فى صوت باك ، من فوق مآذن أزهرنا ، من بين حدائق أندلس ، من داخل مسجدنا الأقصى ، إن نام الناس فهل نحيا كرعاع الناس ، إن خاف الناس فهل نخشى ونظل نياما ، أجدادك حكموا الأرض قرونا ، واليوم ذئاب تحكمنا من بضع سنين ، قم واحمل سيفك لاتخش من طاغى القوم ، قم وارفع راية دعوتنا فى وجه الظلم ، فالخطب عظيم ، والدرب طويل ، والحق نبات لايروى ببحار الماء ، لكن بدماء !

٣ – وسط الأهوال ، الشمس أطلت بشعاع من خلف سحاب ، فأرى فى لدرب جماعات مثلى أحرار ، تأبى أن تخضع للطغيان ، تأبى أن تخضع للتيار .

٤ – وسط الأهوال ، برغم الريح الهوجاء ، الركب يسير ، والجند تغنى فى فرح : سأموت شهيدا ! سأفوز بوعد الرحمن ، سأروح فداء للإسلام ، فغدا سنحطم طاغية القوم العربيد ، كى نعلى راية دعوتنا ويسود لواء التوحيد ، ولنقتل كى تحيا الأمة ، ولنقبر كى تعلو الراية فى الأفاق . الجند تردد فى فخر لحنى المحبوب : إن نام الناس فلن نحيا كرعاع الناس ، إن خاف الناس فلن نخشى إلا الرحمن .

« ابنك ..... »

أترك أم خالد وكلماتها فى أذنى : « الحمد لله : كل هذا تمحيص ! »

● لأدرى هل كتبت شيئا يصلح للمجلة الإسلامية الطليعية فى مناسبة دخولها عامها الثانى ، الأكثر « ضرورة » و « امتلاءا » ! وهل كتبت بعد هذا كله : عن فلسطين ؟ وهل تحتاج فلسطين منا بعد كتابة ؟ ياخجلى وأنا أقف أمام فلسطين وبيدى : كتابـــــــة !

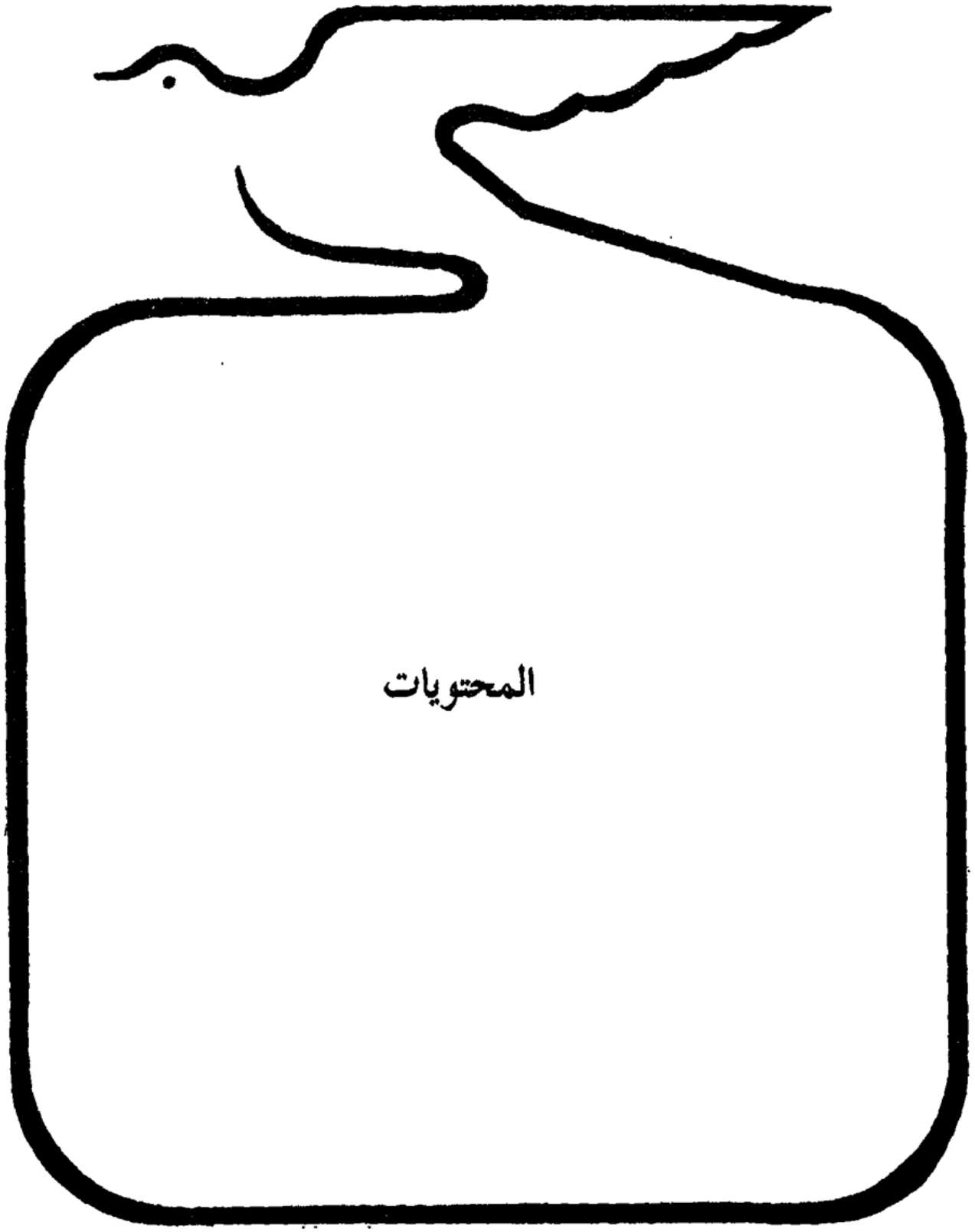

المحتويات

الموضوع	الصفحة

كتاب الزهراء الثانى ٩
وتريات : سناء تنسج مجد الاستشهاد ١١
العصر الأوروأمريصهيونى وعصر الإسلام ١٧
عن السجن والحرية ٢٥
« أيام كنا نتمدد كى نهجع وسط القتلة »
إطلالة فى بوابة سوداء ٣٩
تنويعات على مسألة الحجاب ٤٧
مصر الولود ومسيرة العطاء الثقافى ٥٥
الفنان المسلم و ... بيكار ٦١
فى المسرح والسياسة ٦٩
فى المسرح والبذاءة ٧٥
فى المسرح والاستشهاد ٨٣
أنتيجون صديقتى ٩١
إيفيتا الصعلوكة المليونيرة الحاكمة بأمرها ٩٩

الموضوع	الصفحة

آ ـــــ ه .. ا ١١١
فسيفساء ذاكرة ١١٩
فصيفصاء ظاقرة ا ١٢٩
فطائر الجبن ١٣٧
وتريات : وميض الاكتئاب ١٤٧
رؤيا : العجلة الداخلية ١٥١
رأيت فيما يرى الصاحى ١٥٩
رجال من الثلج ١٦٥
فانتازيا من رسائل قديمة ١٧١
مولد روائى من الجيل المقهور ١٩١
لاجئة إلى دروة داوستاشى ١٩٩
نقط وحروف ٢٠٧
محمد إقبال : شاغر الهند المسلمة ٢١٥
« فخرج على قومه فى زينته ... » ٢٢١
والحق نبات لايروى ببحار الماء ٢٣٥

قائمة مختارة لمكتبتك من إصدارات
الزهراء للإعلام العربي

أحمد رائف

البوابة السوداء

التاريخ السري للمعتقل

صفحات من تاريخ
الإخوان المسلمين

٦٠٠ صفحة

جمال حماد

الحكومة الخفية

في عهد عبد الناصر

د. إبراهيم دسوقي أباظة

الخطايا العشر

من عبد الناصر إلى السادات

صفحات من تاريخ مصر

الفترة من
٤ فبراير ١٩٤٢
وحتى
٦ أكتوبر ١٩٨١

أسرار
حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون

تأليف: حسين محمد أحمد حمودة
أحد الضباط الأحرار

تفسير الفاتحة

وست سور من خواتيم القرآن
العصر و الكوثر و الكافرون
و الإخلاص و المعوذتين

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

الزهراء للإعلام العربي

من مؤلفات

الدكتور حسين مؤنس

دراسات في السيرة النبوية

باشوات وسوبر باشوات

الربا وخراب الدنيا

دراسة علمية

د. إبراهيم الدسوقي شتا

الثورة الإيرانية

الصراع
الملحمة - النصر

الزهراء للإعلام العربي
مقدمة في فقه الجاهلية المعاصرة
تأليف
عبد الحميد الأنصاري

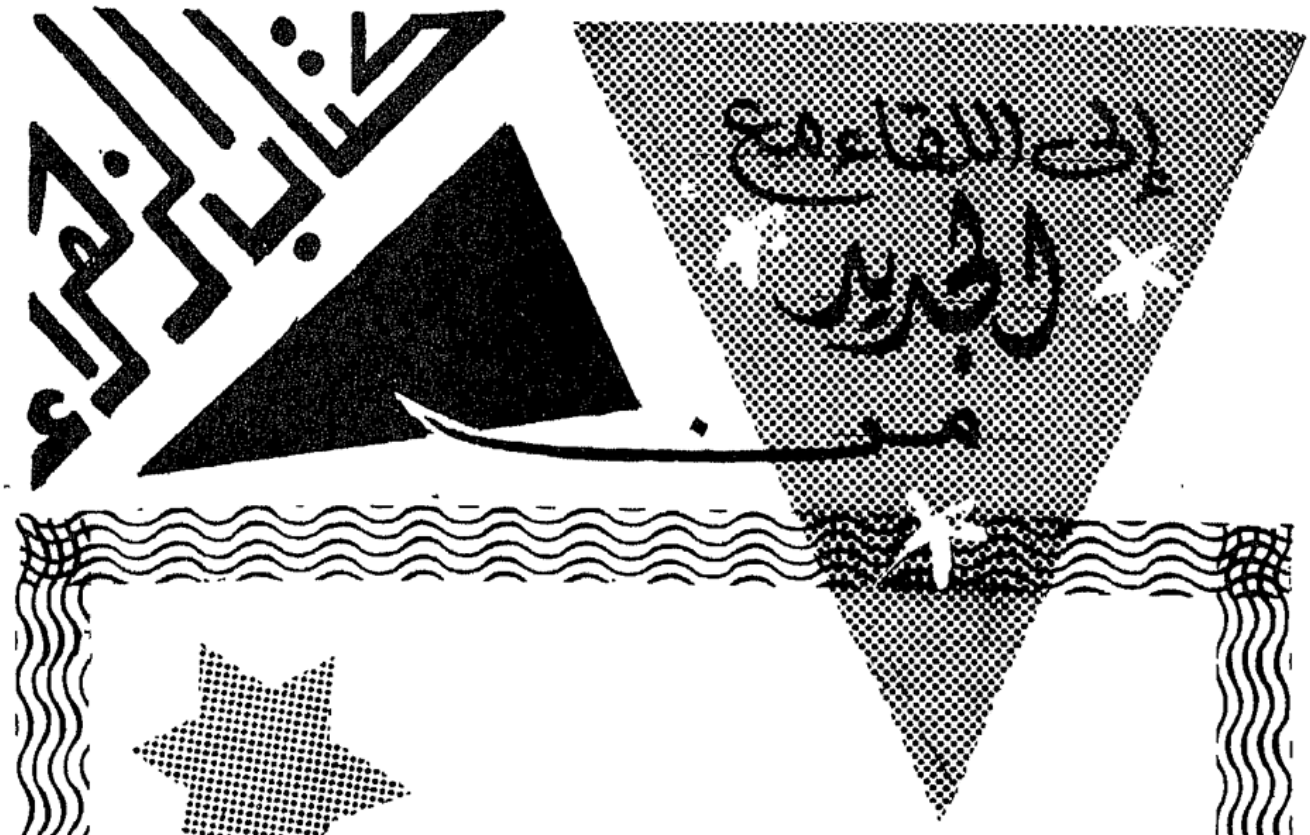

اليهود والماسون في مصر

دراسة بقلم: د. علي شلش

رقم الإيداع ٢٨٣٧ / ٨٦

الترقيم الدولى ٧ - ١٦ - ١٤٧٠ - ٩٧٧

٦ شارع البرامونى - عابدين - القاهرة ت : ٩١٤٨٨١

« كتاب الزهراء » توالد حتمى من طموحات قسم النشر بالزهراء للإعلام العربى إذ يأمل أن يحقق احتياجات ساحتنا الثقافية المتعطشة إلى الكتاب الواثب المتأجج بالحيوية والضرورة ، الكتاب الذى يجمع بين جمال الفن وصدق الموقف وإلتزام الرسالة الساعية نحو تأكيد الهوية الإسلامية لثقافة هذه الأمة .

Bibliotheca Alexandrina
0685373

الزهراء للإعلام العربى